رواية
لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ
سعد عايد البدر
نوفا بلس للنشر والتوزيع
الطبعة الأولى
ضياء
t.me/twinkling4

أُهدي هَذا العَمَل

إلى عائلتي.

«كَيفَ تَعرِفُني جَيدًا، وأنتَ لَمْ تَعِشْ حَياتي!»

«وقفتُ أمامَ ما وقع في حياتي مشدوهًا، كنتُ أحتاجُ إلى أنْ أفهمَ ما حَدث فيها بصورةٍ مُتسارعة.

هل ظلمتُ نفسي؟

أم هم مَن ظلموني؟

ثَمَّة بدايات إن تعثرنا فيها أصبح الفوزُ في سِباق الحياة محالًا؛ حتى لو كنَّا على بُعدِ أمتارٍ قليلة من هذا النصر، أظن أنني لو كنتُ أعرفُ ما سيحدث في حياتي، كنتُ سأجري في الشوارع كالمجنون، وأصيحُ:

لا تشغلكم أهواء الحياة عن أنفسِكم وحياتكم».

جبير عبدالستار

رُوحي صارت كآلةٍ كَاتبةٍ سوداء قديمة، أمسيتُ أسمعُ نغمات نقرات مفاتيحها الحاسمة والغاضبة تدقُ بداخلي. وأفكاري أصبحت مثل أصابع طويلة تكتب وتكتب دون أن تتوقف، تكتب وهي داخل غرفة مهجورة وباردة، غرفة بلا نوافذ ولها باب واحد لكنه صار مغلقًا إلى الأبد، يا للحزن!

إنَّها جسمي الذي صار مشلولًا تمامًا.

ستبقى قصتي سرًّا يجهله الجميع ولن يقرأ حقيقته أحد، ستظلُّ ملفًا مركونًا داخل درج مُهمَل في جسمي لا يُقرأ وإنَّما تأكلُه فقط عُثَّــة الكتبِ، صرتُ أكتبُ أوراقي وأرميها في هذا الدّرج الخفي، أكتبُها بلا توقف، وكما عشتُ حياتي أكتب للناسِ ها أنا ذا أنتهي وأنا أكتب أيضًا ولكني أكتبُ -الآن- ما لا يستطيع أحد قرأته. عشت حياتي كاتبًا وصحافيًّا مشهورًا يكتب كل يوم سبقًا صحافيًّا وها أنا كما كنتُ أنتهي كاتبًا وصحافيًّا يكتبُ سبقًا أخيرًا، وقصةً أخيرةً، ولكن في هذه المرة الأخيرة لن أكتبَ قصةً عن أحدٍ؛ لإنها قصتي أنا.

لو أنَّ لي -الآن- رِمش الفرنسي چان دومينيك بوبي!

فَمَا أمرُّ أنا به -الآن- يُشبه مَا مرَّ هو به، فقَد كانَ في حالةِ شللٍ تامٍ؛ فلم يكن في استطاعته تحريك يديه أو قدميه، بَل كان لا يستطيعُ أنْ يتكلمَ؛ بسببِ جَلطةٍ حادةٍ أصابت جذع دِماغه، كان عقلُه هو الواعي والمتحرك

فقط، الآن تُشبه حالتي حالة چان؛ فأنا لا أستطيعُ أنْ أُحرك أيَّ جزء مِن جسمي، ولا أستطيعُ أنْ أتكلم، لكنَّ عقلي لا يتوقفُ عن التَّفكير.

أتمنى لو أنَّ أمامي -الآن- امرأة تؤمِن بي، وتفعل ما فعلته كلود ميندي بيل مع چان؛ فقد كان في إمكان چان أنْ يرمشَ بجفن عينه اليسرى؛ فقامت كلود ميندي بترتيبِ الأحرف على حسب تَكرار استخدامها في اللُّغةِ الفَرنسية، واعتمدت على إغماض رمش عينه؛ لتدوِّن له روايته.

لو أنَّ أمامي -الآن- امرأة مثل كلود لكنتُ كتبتُ قصتي كما كتبَ هو قصته، ولما رميتها في درجِ الصَّمتِ؛ لتنتهي قيحًا محبوسًا يأكلني بتَمَهل.

جميعُ القصص الَّتي لا ترى النور وتخرج للسطح تتحول إلى بؤرٍ مُلتهبة بالقِيح تحفر بنفسها إلى الأسفل حتى تصلَ لقلوبنا وتقتلنا، لم أحصل يومًا على امرأة تؤمِن بي، في الحقيقة أنا الذي لم يؤمِن بهن قَط؛ فطالما رأيتُ المرأة نوعًا ناطقًا مِن الفاكهة، فجميع مَن مررن في حياتي مِن النساء، لم تتخط الواحدة منهن كونها طبقًا شهيًّا يُلتهم مرة واحدة، لا أكثر من هذا.

لقَد كنتُ نَذلًا بمقاييس العشق والزواج والعائلة، يسهُلُ عليَّ قول هذا؛ لأنني القارئ الوحيد لما أكتبه -الآن- داخل هذه الغرفة المهجورة التي ليس بها سواي.

داخل جسمي المشلول.

***

في السبعينيات وحتى نهاية التسعينيات، كان للصحافةِ المكتوبة شأن كبير وأهمية مَلكية؛ ففي هذا الزَّمن سُميت الصحافة بصاحبة الجلالة، وكانت لها ملوك، وقد كنتُ أنا سَيد صحافة الجرائم.

كان اسمي مشهورًا جدًّا، وما كنتُ أنشرُه كان يُقرأُ سريعًا بنهم، فالصحافة هي حياتي كلّها؛ فقد تحولت بالنسبةِ لي مِن مجرد شغفٍ إلى حياةٍ كاملة، فكانت هي مصدر غروري ومنبع سعادتي وكانت هي سر اكتفائي؛ بل كانت قرينتي، فلا عجب في أنني لم أرغب يومًا في البقاء مع امراة تنافسها أو حتى عائلة قد تلهيني عنها أو تأخذني منها.

عملتُ في جريدةِ الأحداث، وقد كانت الأحداث هي مَلِكَة جرائد الحوادث والجرائم والتشويق في هذا الزمن، وقد عمدت أنا إلى أنْ أؤلِّفَ جريمة وأن أغوص في تفاصيلها حين اختفت الجرائم أو ندرت، وبعدها نلتُ إشادات مِن الجميع؛ من القراء المعجبين بي، ومن رؤساء التحرير.

جبير الحصري، بهذا الاسم يدعوني رفاقي، وبهذا الاسم ختمت كل قصصي التي كتبتها، وفي كلِّ المرَّاتِ التي

تخطت فيها مبيعات جريدتنا مبيعات جميع الجرائد المنافِسة لنا، كنتُ أعلمُ أنني السَّبب في هذا النجاح الكبير, وكنتُ أسير في الممر الطويل لمبنى الجريدة رافعًا يدي بفخرٍ كطفلٍ انتصرَ في لُعبةٍ يعشقُها، بينما كان رفاقي يخرجون لتهنئتي على ما كنتُ أحققه يومًا بعد يوم.

لقد تعوَّدتُ الحصول على كلِّ الاهتمام منذ أنْ كنتُ طِفلًا، فأنا ابن وحيد لوَالديّ، وقد حولتني هذا الوحدة إلى إنسانٍ يعشق نفسه، يفعل كل ما يُرضي هذه النَفس دونَ أنْ يلتفتَ لاحتياجات مَن هم حوله، كنتُ فخورًا بنَفسي هذه ومُتيَّمًا بها، ولحاجتي لقرين لازمتني الصحافة؛ فلم أجد مَا يُناسب رُوحي سوى الصحافة، لقد أرضتني حيث لم تفعل أية امرأة.

تزوجتُ ثمان مرَّات، وانجبتُ أطفالًا ونسيتُ أسماءهم وأسماء أمهاتهم، فلا يشغلُ بَالي هذا التَّذكر، ولا أريدُ لأحد مِن البَشرِ أن يُلهيني عن بلوغ مجدي. واليوم وأنا أُفرِّغ مَا في داخلي أدرِكُ أنني عِشتُ مهووسًا بعملي وبنفسي فقط.

أرغبُ -الآن- في الانتقال إلى الحكاية التي سبَّبت ما أنا فيه من سَجن جسمي، وسَجن أفكاري واختفاء حقيقة قصتي، أريد -الآن- فقط جمهورًا يتخيَّل، وها أنتم تُصغون إليَّ -أو هكذا أتمنى- وأنتم تقرأون ما كتبته، أنا أراكم بلا ملامح، آذان وعيون فقط، تمامًا كما كنتُ أرى البشر، فلم أرَ مِنهم سوى ما يخدم أغراضي ويُرضي غروري، مِن

آذانٍ تسمع، وعيون ترى، وأكف تُصفِّق فقط.

***

رغم أنَّنا كُنَّا في وقت الظَّهيرة؛ إلَّا أن برد أول يناير قد بدأ يتسرَّبُ إلى جسمي ويسري فيه، تحركتُ لأعلِّقَ نتيجة العام الجديد في حائط مكتبي وأثبتها فيه، فعلقتها وقطعتُ أول ورقة منها فظهر لي اسم العام الداخل علينا 2018م مكتوبًا في كلِّ مكان فيها، ثُمَّ جلستُ على كرسي مكتبي الصَّغير الذي يقع على مقربة مِن مكتب رئيس تحرير الجريدة، وأمام صالة التحرير مباشرة؛ حيث تنشط الحركة -غالبًا- في هذا الوقت ثُمَّ تختفي شيئًا فشيئًا مع غروب الشمس.

كنتُ أتابعُ مِن خلفِ زجاج مكتبي هذه الحركة النَّشطة التي يحدثونها خارجه، فرأيت الصحافي مسعد خَلَف صاحب الوجه الأبيض الدائري والذي تتوسطه بثورٌ سوداء وكأنه رغيف خبزٍ، كان يرتدي ملابسه الرياضية الثقيلة التي تحمل شعار إحدى الشركات الشهيرة، وكان يحاول أن يضبط من هندامه قبل أنْ يرفع هاتفه للأعلى وهو ينظر إلى شاشته؛ حتى يُصوِّر نَفسَه وهو يُسجِّل مِن خلاله حديثه لمتابعيه عن هذه القِصة المشوقة التي باتت تشغل رأي عام بلدنا كلّه:

«قاتلٌ متسلسلٌ يظهر في مدينتنا، ويرتكبُ جرائمَه المتكررة البشعة بالطريقةِ ذاتها في كلِّ مَرَّة، وهو يُوجِّهُ

رسالةَ خَوفٍ ورعبٍ لنا جميعًا».

يحاولُ مسعد -بكلماته التي أعدَّها، وبأسلوبِه المُشوِّق تشويقًا رخيصًا- إيهامَ متابعيه على مواقع التَّواصل الاجتماعي بامتلاكه لأخبارٍ جديدة عن هذا القاتل المتسلسل الذي بدأت تظهر ضحاياه في أرجاء مدينتنا يومًا بَعد يومٍ؛ لكن وحسب معرفتي، هو لا يملكُ سوى ما يُكتب في مواقع التواصل الاجتماعي هذه، يعرفها وينقلها؛ فهي أخبار تدور بين أياديهم ولا جديد يصلون إليه عن هذا القاتل.

مِن حُسن حظِ مسعد أنني اكتفيت -الآن- بكتابةِ المقالات فقط، وابتعدتُ -تمامًا- عن صفحةِ الجرائم؛ لأنني واثق جدًّا مِن سُرعة اكتشافي لهذا القاتل المتسلسل إنْ عكفت على مَلفِ جرائمه وتحريتُ عنه.

لا، لا أريدُ المبالغة، فربما يلعبُ العمرُ دوره معي -الآن- فأنا قد اقتربتُ مِن نهاية الخمسينيات مِن عمري، ومعظم مصادري الخاصة من رجال الأمن قد أُحيلوا على التقاعد وتركوا مناصبهم ليحل محلهم الجيل الجديد من الشباب الذين لم يكن في وسعي أنْ أُشكِّلَ شبكةَ علاقاتٍ معهم أو مع أيّ من هؤلاء من هذا الجيل الجديد حتى في صحيفتنا؛ لأنهم يشعرُون بالرهبةِ من التَّعامل مع المشاهير مثلي، عفوًا مَن كانوا مشاهير.

هذا ما دفعني للابتعاد عن الساحة، وترك فرص الصعود

للدِّماء الشَّابة الجديدة، وهذا -حقًّا- ما كنتُ أقنع به نفسي كما يقولُ كلّ مسئول أُجبَر على تركِ منصبه، وحاول -كذبًا- أنْ يُرجِعَ السبب إلى إفساح الطَّريق أمام الدِّماء الشَّابة، أو إلى رغبته في الابتعاد عن المسؤولية.

واصل الشاب مسعد حديثه بحماس مفتعل، وهو يردد:

«سأكشفُ أمامكم مزيدًا من تفاصيل هذه الجرائم التي يقوم هذا القاتل بارتكابها واحدة تلو الأخرى، ولكني أتمنى أن تقوموا بإعادة نشر مقطعي هذا على كلِّ صفحاتكم؛ حتى أذيعَ لكم بثًّا ثانيًا، وثالثًا؛ لأبقيكم مطلعين على كلِّ تفاصيل هذه الجرائم».

يبدو أنَّ أسلوب الاستجداء لم يعُد حِكرًا على الشحاتين أو المتسولين؛ بل إنَّه قد ذاقَ شيئًا من التَّطور؛ فظهر -الآن- الاستجداء الإليكترونيّ؛ حيثُ مَن يُقدِّم معلومة ما يطلبُ ممن يقومون بمشاهدته متابعة صفحته وإعادة نشر ما يُقدِّمه على كلِّ هذه الصفحات وعلى نطاق واسع؛ حتى يستمرَ في تقديم محتواه لهم.

كان من الأجدى أنْ يثقَ في ما يُقدِّمه، وفي أسلوبه -إنْ كان جيدًا بالطبع- لأنهما يستطعيان أنْ يجعلا الجميع يتابعونه، وليس باستخدام ترديد كلمات مثل: أرجوكم لا تنسوا متابعتي، واضغطوا زر الإعجاب، وأعيدوا نشر مقطعي، وغيرها من توسلات الاستجداء المستجدَّة والمُثيرة للشفقة.

أنهى الصحافي الشاب مسعد حديثه إلى متابعيه وأغلق هاتفه، ثُمَّ نظر لأحدِ الزملاء الذين كانوا بجانبه، وتحدَّث إليه:

- ما رأيكَ في ما قلته لمتابعيني؟

فردَّ هذا الزميل الذي لم يكن منتبهًا فعلًا لحديثه:

- رائع، رائع فعلًا.

فابتسم مسعد مستمتعًا بثناء زميله على ما بثَّه لمتابعيه. مِن الغريب أنَّ بعضَ البَشر يعجزون عن قولِ الحقيقة، ماذا كان سيجرمُه إن قالَ: اعذرني فأنا لم أنتبه لما قلته لهم، أو لم أكن مُنصتًا إليكَ!

لدينا -هنا- بعض الأشخاص ممن يريدون أنْ يلقوا المدح، أو تُشنَّف آذانهم بكلِّ كلمات الامتنان والثناء بمناسبة وبغير مناسبة، حتى وإنْ لم يفهموا أيَّ شيءٍ، فعلًا مِن الصَّعب أنْ تفهم عالم البَشر مهما طالت بكَ الأعوام في هذا الكون.

بعد أن أنهى مسعد حديثه مع هذا الزميل، توجهت عينه تجاهي، لا أعلم إنْ كان قد لاحظ نظراتي للموقف الذي كان يعيشه أم لا، لكن لا يهمني هذا، أتمنى فقط ألَّا يقترب من مكتبي، فأحاديثه المملة تُبعد الإلهام ووحي الكتابة عني، حتى لو لم أكن أكتب، لا أريد أنْ أجلس معه، أو أن أراه حتى.

أشعر أنني أخسرُ جزءًا مِن وقتي الثمين، وبصراحة أنا لم أعد أعرف ما الثمين في وقتي الذي صار عاديًّا للغاية. وأنا غارق في هذا التفكير، رأيتُ مسعد يتجه نحوي مباشرة، يا لسوء حظي!

اقترب مسعد مني أكثر وأكثر، فتظاهرتُ بأني منشغل في كتابةِ موضوع ما، فأنا لا أريدُه أنْ يراني خاليًا هكذا بلا عمل أخرجه للجريدة، وأنا قد أصبحتُ أعتادُ على أداءِ دور الرجل المشغول -دائمًا- والذي لا يستطيع الهرب من ضغط عمله المستمر والذي لا يجد وقتًا حتى ليحكَّ فروة رأسه؛ ربما صرت أفتعلُ هذا الدَّور لأثبتَ لهم أنَّ أهميتي الشديدة ما زالت مستمرة، بَعد أنْ رأيت في عيونهم أنَّني قد فقدتُ جزءًا كبيرًا مِنها، ولكن مسعد طَرق باب مكتبي الزجاجي وهو يوجه نظره صوبي، ثُمَّ أمسك مقبض باب مكتبي ودفعه للأمام ليفتحه، وهو يقول فجأة:

- عمي جبير، أتمنى أنْ يكونَ وقت دخولي إليكَ مناسبًا.

تُضايقني كثيرًا كلمة عمي منه، وهو يعرف أنني أتضايق من مناداته لي بهذا الوصف؛ فهي تُشعرني بتقدمي في السن، فرددتُ عليه:

- عمُّكَ هو شقيق والدكَ؛ وأنا لستُ شقيقه، ولا أنتمي لكم أبدًا.

أستاذ من فضلِكَ، لقد اقتحمتَ مكتبي وانتهى الأمر.

أخبرني، ماذا تريد؟

ضحك مسعد بصوت أثار استفزازي أكثر، فقهقهاته تُشبه صوت باب تعرضت مُفصَّلاته للصدأ، وجلس على الكرسي المقابل لي وأخذ يقترب مني أكثر وأكثر بشكل يوحي أنَّ الأمر الذي يودُّ محادثتي فيه هو أمر جلل، أو أنَّ هناك سرّا ما لديه يريد أنْ يُخبرني به ولا يريد أن يسمعه سوانا.

- هل تريد أنْ أُسمعكَ أخبارًا جديدة؟

لا أُنكر أنَّني لا أريد التحدث مع مسعد، لكن فضولي يدفعني للتنازل عن نفوري منه، وتدفعني الرغبة في سماع أخباره، فرجل مثلي في هذا العمر يبحث عن أيَّة أحاديث أو أيّة أخبار جديدة يتناولها في حديثه مع الآخرين ليُبِّينَ لهم أنه ما زال مواكبًا للأحداث التي يُديرونها حوله، ومع هذا لا أريده أن يلحظ اهتمامي بكلامه أو بشخصه أبدًا، فأجبتُ على سؤاله بكل برود:

- هَاتِ ما عِندَكَ؟

ردَّ مسعد عليَّ:

- لكني لا أُريدكَ أن تقولَ إنَّه ليس وراء مسعد سوى الأخبار السيئة، اتفقنا؟

ضحكت بصدقٍ، وأنا أفاجئه:

- حتى وإن قلتَ أخبارًا جيدة، فستتحول إلى أخبارٍ سيئة، أنا متأكد من هذا.

ضحكَ هو الآخر، لكن كان واضحًا على وجهه أنَّه كان يضحك ضحكات مزيفة قبل أن يهم بإكمال حديثه معي:

- عمي، أقصد أستاذي، أعلم أنَّ أيَّ سر لديكَ هو سر مؤتمن.

هذه الأيام تدور شائعات حولنا في مؤسستنا الصحافية؛ فيُقال -والعُهدة على مَن قال- إنَّه صار لدى المسئولين هنا توجه جديد، فأصبحت لديهم نية في أن يقوموا بتخفيض عدد الموظفين والصحافيين الذين يعملون هنا، وقد سمعتُ مِن أحدِهم أنَّ اسمكَ يا أستاذي مطروح في أوَّلِ هذه القوائم، لأنَّ راتبكَ المرتفع جدًّا يُسبب إرهاقًا كبيرًا لميزانية مؤسستنا، وأنهم يفكرون في أنَّه قد آن الأوان للتخلصِ منكَ.

بدأتُ أشعرُ بالخوفِ والتّوتر مِن كلامِ مسعد، ولم تُعجبني كلمة التخلص منكَ هذه التي ألقاها في وجهي كشتيمةٍ، تلقيتها منه بغضبٍ وأنا أراها كلمة قاسية، وغير مناسبة لي أبدًا، فأنا لا أستحق أنْ يتخلصوا مني بهذه الطريقة، ربما أستحق التَّكريم والوداع، فأرى هذا مناسب أكثر لي، فرددتُ عليه:

- التخلص مني!

مَن يُحاول أن يتخلص مني هنا، أنا من..

قاطعني قبل أن أُكمِلَ ردي عليه:

- نعم جميعنا نعلم أنَّكَ مَن أسهمتَ في نجاح هذا الصَّحيفة، وفي وصولها لما هي فيه مِن شهرة، لكن اعذرني على صراحتي..

صمَت مسعد وابتسم، وكأنه قد بدا عليه الخجل:

- مسعد يشعرُ بالخجل، الدنيا تفاجئنا بأشياء جديدة كل يوم.

ضحك، ثم أكمل مسرعًا في حديثه:

- أرجوكَ لا تشعر بالانزعاج مني يا أستاذي لكني سمعتُ مِن بعض الزملاء هنا أنَّك وبعض الزملاء الآخرين الكبار مَن هم مِن الأجيال السابقة قد انتهى زمنكم وتوقفت نجاحاتكم، وأتى زمن جديد عليكم، وأنَّ التجديد صار أمرًا واجبًا.

قد يكون مسعد صادقًا فيما يخبرني به، أو هو صادق بالفعل، فلم يعد أحد يتذكر إسهاماتي العظيمة التي رفعت من هذه الجريدة، وصاروا لا يعترفون بما قدمته لها من إنجازات فريدة من قبل، أصبحوا لا يرون إلَّا راتبي المرتفع فقط، والذي لا أتقاضاه منهم عبثًا، بل هو ثمرة حصدتها بعد سنوات من تعبي وشقائي هنا، ولكن مع انهيار سوق الصحف الورقية أُدرك أنَّ هذا المبلغ الذي

أحصل عليه يُعد مبالَغًا فيه، لهذا فما سمعه مسعد من زملائنا هو الحقيقة المـُرة التي أرفضها، وسأبقى هكذا أرفضها؛ لأنني أريد الحفاظ على وظيفتي والبقاء فيها لأسبابٍ عديدة مادية وغير مادية، لكنني وقبل أن أغرق في أفكاري وهو يحادثني وجهَّتُ سؤالي له:

- حسنًا يا وجهَ النَّحسِ، متى سيصدرون قراراتهم المشئومة هذه؟

نهض من كرسيه وهو يشير إلى صورة التقويم المـُعلَّقة على حائط مكتبي، ووضع إصبعه أمام شهر يونيو، وقال:

- هذا الشهر المشئوم سيكون هو موعد رأس السنة المالية الجديدة، حيث تأتي الأخبارُ السيئة والنهاياتُ المحُزنة.

يونيو، هذا الشهر الذي يحمل معه صيفًا شديد القسوة، سيحمل معه هذا العام أخبارًا أشد قساوة، سيكون غليظًا وقليل الرَحمة، لكن ليس بيدي أية حيلة لأفعلها سوى الترقب والاستعداد لمصيبةٍ أعلم أنَّها قادمة لا محالة، مصيبة ستصدَم بي اليوم أو غدًا.

عاد مسعد للمقعد محاولًا نشر طمأنينة مزيفة أمامي:

- لكن يا عمي، أقصد يا أستاذي، ربما يتراجعون عن هذا القرار، فقد يأتي عقد إعلاني ضخم أو ربما تتم تسوية أمر راتبكَ العالي ويتم تخفيضه، وهذا أفضل الحلول السيئة.

نظرتُ إليه بكل استهزاء، وقلتُ:

- أنتَ وأنا نعلم جيدًا أن هذه المؤسسة لم تسعَ قَط لأية تسويات، فقطع الرؤوس هو الحل المفضل لديهم؛ لهذا دع الأيام تفعل ما تشاء، وسنرى ما سيحصل غدًا، وأتمنى أن يخيبَ ظنّكَ ولا يحدثُ ما تُمني به نفسك.

لم تؤثر كلماتي الشديدة في مسعد، فليست هذه هي المرة الأولى التي أحدثه فيها مباشرة بهذه القسوة، وليست هي المرة الأولى التي يُظهر لي فيها تلميحه بأمنيته في أنْ تتم تنحيتي مِن منصبي؛ ليحلَ محلي ويجلس على كرسيّ في مكتبي، ثُمَّ يُطالب برفع راتبه باعتبار أنَّه صار يشغل منصبي ويعمل مكاني، وبالتالي يستحق الامتيازات التي كنتُ أحظى أنا بها.

وأنا لم أتحرك مِن مكاني بَعد، ردَّ مسعد:

- الله يسامحك يا أستاذ، لا أحد يتمنى لغيره قطع رزقه حتى لو كانت له مصلحة في هذا.

وقفتُ لألملمَ أغراضي وأحمل حقيبتي وأنا أهمّ بمغادرة مكتبي لأعودَ لبيتي، كان مسعد لا يزال يُطرب أذني بكلمات رنانة عن الإنسانية والأخلاق وغيرها من الكلمات التي تصفُ المشاعر والخلق والتي لم تهز مني شعرة، بل أثارت في نفسي رغبة في لكمه لكمة قويَّة في وجهه؛ ليتوقفَ عن هذا الهذيان الذي يهذي به أمامي، فحاولت

إنهاء حديثي معه:

- مسعد، دع عنكَ هذه الأحاديث الأخلاقية المُبالغ فيها، ونصيحتي لكَ أنْ تذهبَ لمكتبِكَ وتُجهِّز بعض الأخبار الساخنة لمتابعينكَ، ولا تنسى أنْ تُضيف عليها بُهاراتكَ الخاصة؛ فالناس يُحبون القصص المزيفة ويصدقونها أكثر من القصص الحقيقية، وأنت أهل لهذا.

تركته وهممت بمغادرة مكتبي، وأثناء خروجي كان أبو حاتم فرَّاش رئيس التحرير جالسًا في زاوية بجوار المكتب، وعندما لمحني خارجًا مِن مكتبي قفز لإخباري بما لديه من مستجدات صحيفتنا كعادته معي؛ فهو يتقاضى مني مكافأة خاصة جزاء له على إخباري بهذه الأخبار والتي غالبًا ما تكون سيئة.

اقترب الفرَّاشُ أبو حاتم مني وهو يرتدي قبعته التي تُشبه القبعة التي كان يرتديها شارلوك هولمز، ويلبس مِعطفًا شتويًّا ثقيلًا لونه أخضر عليه شعار النادي العربي الكويتي، وهمس في أذني:

- هناك زلزال في يونيو يا أستاذ جبير.

نظرت له، وقلت:

- أعرف أعرف، سيتم تقليص عدد الموظفين.

قاطعني أبو حاتم بسؤاله:

- وهل تعرف -أيضًا- كيف سيتم هذا التقليص؟

أجبته:

- عشوائيًّا.

فضحكَ، وقالَ:

- مصدركَ لا يبدو أنه يعرف الحقيقة كاملة.

- كيف؟

نظر أبو حاتم أمامه ثُمَّ نظر خلفه، ليتأكد من عدم خروج أيّ من الزملاء من غرفة رئيس التحرير، ومن أنَّه لا يسمعه أحد غيري، ثُمَّ أخبرني وهو يهمس في أذني:

- سيتم تقييم عمل كلّ مَن يعمل هنا خلال الستة شهور الست الحالية؛ وبِناءً على هذا التقييم سيتم اتخاذ قرارات التصفية هذه، فهم يريدون إبقاء الأكْفَاء المفيدين من الموظفين والصحافيين فقط.

لم تُغيِّر معلومة أبو حاتم شيئًا لديَّ في واقع الأمر، فما الذي يُمكنني إضافته أو تغييره خلال هذه المدة القصيرة! فهؤلاء الشباب الذين يعملون معي هم مثل سيارات الفيراري من حيث السرعة والتَّطور، أما أنا فقد صرتُ مثل الذي يركب حمارًا ويسير به وسط هذا السِّباق المحموم.

قَدر أي رجل كبير السن مثلي أن تكون هذه هي نهايته

الطبيعية، التقاعد والجلوس في بلكونة شقته مع أصدقاء يقاربونه في عمره قد تقاعدوا هم كذلك، ولم يبقَ لهم إلَّا التجمع للحديث، الحديث فقط، يتحدثون عن ماضيهم، ولا مانع مِن إضافة بعض النكهة على حياتهم، حتى تزيد الإثارة في حكاياتهم.

وإن لم ترق لي فكرة الجلوس الهادئ في بلكونة شقتي فسأذهب للجري في الحديقة المجاورة لي؛ لعلَّني أستطيع أنْ أحافظ على صحتي التي أهملتها خلال عشرات السنين التي مضت عليَّ وأنا منهمك في عملي في الجريدة، ولم أتذكرها سوى في الوقت الضائع، وأنا على أبواب الشيخوخة.

بالفعلِ هو وقت ضائع أريد أنْ أمضيه كما هو؛ ففكرة قضاء وقتي المتبقي مع أسرتي صعب تحقيقها، فلن يتقبلني أحدٌ من عائلتي بعد كل هذه السنوات التي أهملتهم فيها، ولا أودُّ أنْ أكونَ ثقلًا على أحد أبنائي؛ فكلّهم قد اعتادوا على أنْ يحيوا بدوني، وعلى أنْ يُمارسوا أيامهم دون أنْ أكونَ موجودًا فيها، ولن يرتاحوا -أبدًا- لوجودي المفاجئ وقد صرتُ أبًا متقاعدًا أتوسل الاهتمام ولن يعطيني إياه أحد.

التفكير في التقاعد أمر مُقلق حقًّا بالنسبة لي، بل هو مخيف ومرعب، لم أفكر في يوم من الأيام أنني سأتقاعد عندما أكبرُ ويغزو الشَّيب شَعري ويتقوس ظَهري، ويسيرُ العكاز معي أينما ذهبت ويكون هو رفيقي الذي لا

يفارقني، ما أتعس هذا الحياة!

ما أتعس هذه الحياة عندما تصبح عالة على الناس ترجو منهم اهتمامهم فلا يقدمونه لكَ، ولكني أستحق هذا الجحود؛ لأنني لم أهتم يومًا بأحدٍ سواي، فقد كنتُ أنانيًّا للغاية ولم أفكر قَط إلَّا في عملي وشهرتي وفي كلِّ سبق صحافي كنتُ أعدُّه وأقدمه للقراء.

الآن وأنا على مشارف التقاعد أفكر، هل سيصبح حالي كحال مَن سبقوني؟

ملايين البشر الذين يُحالون على التقاعد سنويًّا ويُصبح أكبر همهم وأعظم أعمالهم هو إطفاء مصابيح الكهرباء في غرف منازلهم، أو إغلاق حنفيات المياه من حماماتها ومطابخها، أو الجري وراء الأطفال الذين يلعبون كرة القدم أمام أبواب منازلهم ويضربون الأبواب بكراتهم اللاهية بين الحين والآخر، أو حتى ذهابهم للسوق لشراء بعض حاجاتهم التي لا يستطيعون حملها فيتعرضون لعروض المساعدة من الناس.

أنا أكادُ أُجن، هل ستصير حياتي هكذا؟

***

أحداثٌ مُتلاحِقة

حلَّ شهر مارس، وأتت أيامه كالتي قبلها ولم تأتِ بجديد في صحيفتنا، كُشوف إنهاء الخِدْمات باتت جاهزة فوق مكاتب المسئولين تستعد لتنفيذها، والجميع كان يتحدث بأن اسم جبير عبدالستار هو الذي يتصدر هذه القوائم.

يا لقسوة الأيام وتصاريف الزمان!

بدلًا مِن أنْ يتصدر اسمي صفحة الجريدة الأولى وبحجم عريض في سبق صحافي، يتصدر -الآن- هذه القائمة اللعينة التي تؤرقني، وتدمر حياتي، لكن هذه هي سُنَّة الحياة، حسنًا لا أريد أنْ أكون مُشتكيًا أو متذمرًا أكثر من هذا، فلن يحدث ما هو جديد، الأمر الجديد فقط في مارس هو أنَّ القاتل المتسلسل الذي تحدَّث عنه مسعد باهتمام شديد في بداية يناير لا يزال يواصل إجرام جرائمه في مدينتنا دون أنْ تستطيعَ قوات الأمن بكافة قطاعاتها وترساناتها العثور على دليل خلفه أو على أيِّ أثر يوضِّح هُويته، ولم يستطع أنْ يوقفه أحد.

لقد كان هذا القاتل المتسلسل يرتكب جرائمه بذكاءٍ شديد ودقة متناهية، وكأنه عالِم في عالَم ارتكاب الجرائم، فلم يترك خلفه في مسارح جرائمه أيّة بصمات، أو أية أدلة تدلُّ عليه، لم يترك أثرًا خلفه، بل وصل به الأمر أنَّه تحدى رجال الأمن والمحققين في جرائمه بأنَّه كان يرتكب

كل جريمة قتل ينفذها بالطريقة ذاتها التي نفَّذَ بها الجريمة التي سبقتها، وهي توجيه طعنات متتالية إلى ظهرِ ضحيته حتى تفارق الحياة.

قاتل جبان، لا يستطيع مواجهة ضحاياه من الأمام، فهو يرديهم قتلى بعدما يطعنهم طعنات متوالية في ظهورهم من الخلف مُفاجئًا إياهم، ولكنَّ الأمر بات مُريبًا ومُقلقًا؛ ليس لأننا في صحيفتنا لم نأتِ بخبرٍ جديد في تحديد هُوية هذا القاتل المتسلسل، لكن لأنه لا يزال حُرًّا طليقًا يُتبع كل جريمة قتل يرتكبها بجريمة أخرى تشابهها.

وقد أكون أنا أو مسعد -وكنت أتمنى هذا الأمر حقًّا- الضحية القادمة لهذا القاتل؛ ولهذا أصبحنا أكثر حذرًا؛ فصرنا لا نتحدثُ مع أيّ شخص مُريب قد نشكُّ فيه أو نرتابُ من تصرفاته، وأمسينا لا نخرج في ساعات الليل المتأخرة أبدًا.

في أحدِ الأيام في مبنى الجريدة، كنتُ جالسًا برفقة مجموعة من الزملاء، لم تكن تدور بين ألسنتهم قصة سوى قصة هذا القاتل المتسلسل الذي يرتكب جرائمه ببشاعة، كل منهم كان يروي ما يعرفه أو ما قد سمعه عنه أو حتى ما يتخيله حوله، إلى أنْ قال أحدهم وهو يلتهم قطعة كبيرة من الكعك وصوته يكاد لا يُفهم بسبب مضغه المزعج مرتفع الصوت لطعامه أثناء حديثه:

- لقد سألتُ أحد أقاربي وهو مِن العاملين في مركز

الشرطة عن هذا القاتل، فأخبرني بأنهم قد بدأوا يراجعون ملفات قضايا القتل القديمة التي حدثت في مدينتنا لتحليل ما ارتكبه هذا القاتل المتسلسل؛ وقد تبيَّن لهم أنَّ أول جريمة أجرمها كانت قبل عامٍ تقريبًا، وكان ضحيته الأولى شاب في الخامسة والعشرين من عمره، عثروا عليه مقتولًا داخل سيارته بالطريقة ذاتها التي يقتل بها هذا القاتل؛ أي أنَّه كان مطعونًا بطعنات عديدة في ظهره أودت بحياته و..

قفزت كلمات زميل آخر وهو يقاطع حديث زميلنا الأكول هذا:

- لا، لقد سمعتُ أنَّ أولى جرائمه كانت في حق فتاة جامعية، فقد قتلها في إحدى الحدائق العامة في ساعات الليل المتأخرة بعد أن عاجلها بطعنات متفرقة في ظهرها تسببت في مقتلها على الفور.

أتي مسعد بعد كلِّ هذا الحديث؛ ليشاركهما حديثهما غير الأكيد، فقال:

- كلُّ ما قلتماه ليس هناك مقياسًا لمدى صحته، لا يعرف أحد -حتى الآن- كيف بدأت جرائم قتل هذا القاتل المتسلسل والتي بلغت حتى ساعتنا هذه العشرين جريمة، فقد قتل من مدينتنا عشرين ضحية، دون أن يكون هناك رابط واحد يجمع فيما بينها؛ ولهذا يُرجَّح أنْ تكونَ جرائم القتل هذه هي عمليات عشوائية.

التفت أبو حاتم الذي كان يكتفى بدور المستمع لما يقولونه حوله، ونظر إليَّ وسألني:

- أستاذ جبير، ألم تحدُث مثل هذه الحوادث أثناء تاريخكَ الصحافي هنا؟

كان سؤال أبو حاتم مثل البلسم على الجرح، فبفضله سأخوض مطوِّلًا في الحديث عن ذكرياتي الصحافية في التحقيق عن الجرائم، فأجبته أمام كل الزملاء الحاضرين:

- حسنًا، بالفعل قد مرَّت في حياتي الكثير من القضايا المشابهة لهذه القضية، لكن لم يكن عدد الضحايا كبيرًا هكذا قَط، فأنا أذكر مثلًا المجرم وحش الليل الذي قتل خمسة أشخاص في السبعينيات، ثم تكررت أحداث مشابهة لما فعله، لكن دون أن تصل إلى هذا العدد الكبير، فربما تكون مجرد حوادث متفرقة لـ..

قاطعني مسعد، وهو يقول:

- أستاذ جبير، لماذا لا تستحضر خبراتكَ لتعرفَ أية خفايا أو أية أسرار قد تملكها الشرطة ولا نعرفها نحن؟

كان سؤال مسعد منطقيًّا في ظاهره، ولكنه كان خبيثًا في باطنه؛ فقد حاول أن يُبيِّن لكلِّ الحاضرين أن جبير لم يَعد يملكُ قدرته الصحافية الجبارة التي كان يمتلكها في سابق عهده، لكنني عاجلته بإجابتي التي جعلته يندم على تقديم سؤاله هذا لي:

- لا أريدُ أن آخذ زمني وزمن غيري يا مسعد، ولكن كما يبدو -الآن- الصحيفة لم توفَّق في تعيين صحافيين قادرين على تكرار إنجازاتنا، للأسف.

انسحب مسعد من الحوار الدائر بيننا وملامح وجهه متجهمة بعد إجابتي هذه عليه، فأكمل بقية الزملاء أحاديثهم عن هذا القاتل وهم يحكون تفاصيل جرائمه التي تشابهت في تفاصيلها رغم اختلاف ضحاياه فيها، وتعجبوا من عدم وجود أية صلة تربط بين كل ضحية وأخرى، إلى أن علَّق أحد الموجودين معنا:

- يبدو أنَّ القاتل لا يفضِّل الابتكار، ولا يجيد سوى طريقة قتل واحدة.

فردَّ عليه أحد الزملاء المهتمين بالحالات النفسية للجناة:

- ما يقوم به هذا المجرم القاتل ليس عن طريق الصدفة، ولكن جرائمه هي جرائم مدروسة بعناية ولها أسبابها حتمًا، إلا أننا ما زلنا نجهلها.

هذا الزميل صدق في حديثه، فمعظم الجرائم التي عاصرتها في تاريخي كان خلف ارتكابها أسباب أدَّت لوقوعها ولم تأتِ قَط بمحض الصدفة.

لا أعلم لماذا أصبح هذا القاتل المتسلسل يستحوذ على اهتمامي، قد تكون مجرد محاولة مِن عقلي لنفض الغبار عني بعد مدة طويلة غبتها عن هذا العالم المثير، أو ربما

هي محاولة مني لأعيد إثبات وجودي في هذه الصحيفة قبل أن يُعلَّق حبل المشنقة على أبوابها ويدفعوني نحو نهاية حتمية داخله، النهاية التي لا أريدُها أبدًا.

***

اتصالٌ مِن مجهول

موجاتُ الصَّيفِ الحارة التي تهب كانت تضرب وجهي وأنا أتجه نحو الصحيفة التي أعمل بها، ونحن على بُعد أيامٍ قليلة حتى يدخل شهر يونيو؛ فبَعد دخوله ستُرسم أمامي نِهايتي التي لا أريدها أبدًا أن تأتي، لكن دعوني أخبركم بشيءٍ، طوال الأشهر الفائتة قد شغلت نفسي بوضع خريطة تحصرُ الأماكن التي أجرم فيها هذا القاتل المتسلسل جرائمه، و-أيضًا- حصرت أسماء ضحاياه وجمعت التفاصيل الكثيرة لحياة كل واحدة أو واحد منهم.

كان الأمر مُثيرًا للاستغراب فعلًا، فلا توجد أماكن أو علاقات مترابطة بين جرائمه العديدة، ولا حتى ضحاياه تربطهم أية علاقة أو أية صلة، لقد رأفتُ بحالِ المحققين وهم يتعرضون لسيلٍ جارفٍ مِن الأسئلة دون أن يمتلكوا أية إجابة واضحة ومُفسِّرة.

أتت ردود أفعال الصُّحف عنيفة؛ فقد وصفوا هؤلاء الرجال بأنهم لا يمتلكون القدرة لكي يكشفوا حقيقة هذا القاتل، لكنَّ هؤلاء الرجال مظلومين في رأيي؛ لأنَّ هذا الزئبق -كما أحببتُ أنْ أسميه- لا يتركُ خلفه أية إجابة لأيّ سؤال، هو مجرد أثر بَعد عين، بل لا عين قد رأته من الأساس، وإن حاولتَ أن تُفسِّر أيّ شيء مما يُحدثه، لن تجد سوى ألَّا تفسير له.

وسط الضجيج الصامت الذي انشغل به الزملاء حول رياح إنهاء الخِدْمات، شغلتُ نفسي بهذا القاتل الغريب وقد كان أمره يُسليني ويُبعد عن رأسي الأفكار السوداوية التي تزورني كلما فكرت في تقاعدي وما بعده.

لا ضير من انشغالي بهذا القاتل المتسلسل لعلَّي قد أصل إلى خيط يقودني إليه، وأضعف الإيمان من انشغالي بقضاياه ألَّا أُصاب بالجنون كلما فكرت في أمر إحالتي الجبرية على التقاعد.

عدتُ في نهاية هذا اليوم الى المنزل، ورميتُ جسمي على سريري، كنتُ أنظر الى السقف وأنا متردد بين إعداد العشاء أو الاستغناء عنه حتى أحظى بنومٍ سريع ولذيذ بَعد هذا اليوم الذي كان يضج بالأفكار، فجأة وَرَدَ على هاتفي اتصالٌ مِن رقمٍ مجهولٍ، في البداية لم أرد عليه؛ فأنا دائمًا أتوقع أنَّ تكون هذا الأرقام المجهولة ليست سوى أرقام شركات النصب أو أرقام اللصوص المحتالين الذين يُخبرونني بأنني قد ربحتُ جائزة ثمينة أو مليون دولار مثلًا، وأنَّ عليَّ تقديم بياناتي لهم بكلِّ سهولة، ثُمَّ يتمُ استدراجي إلى الهاوية فأجد نفسي أدفع لهم بدلًا مِن أنْ يدفعوا هم لي كما أخبروني.

الاتصال مِن هذا الرقم المجهول كان يتكرر ويتكرر، يُلح ولا يريد أنْ يستسلم؛ حتى قررت أنْ أرد عليه وأنا أحضِّر لأذنه مجموعةً من الشتائم والإهانات التي ستجعل هذا

المتصل يندم على تَكراره للاتصال بي:

- ألا تعلمُ أنَّ هذا وقت يستريح فيه الناس، يا ابن..

فقاطعني بكلِّ هدوء:

- الصحافي جبير عبدالستار، جبير الحصري، جبير الذي لم يستطع أن ينافسه أحد في صحافة زمان.

بلعتُ اندفاعي الذي أطلقته في وجهه، وتراجعت عن كلماتي البذيئة التي كنتُ أنوي قولها له، وهدأتُ لأوجه له سؤالًا بدلًا منها بصوت هادىء:

- أهلًا أنا معكَ،

مَن معي؟

سمعتُ صوتَ أنفاسه وهو يستعد للحديث معي:

- أنا مِن سيُعيدُك إلى قمةِ الصحافة مجددًا يا جبير، فأنا مَن أملكُ المعلومات التي قد تعيد الناس يترجوكَ كي يأخذوا صورة بجوارك، أو يطلبون أوتوغراف منكَ.

كم كان وقع كلماته جميل جدًّا في أذني، لكنني -أيضًا- لم أرفع سقف توقعاتي معه، فربما يأتيني بعد مقدمته هذه كلّها بخبرٍ تافهٍ لا يصلح أن يُنشر حتى في صحيفة مدرسية، فاستعجلته أن يُخبرني بكلِّ شيءٍ:

- فعلًا! حسنًا، شكرًا لتفكيركَ في أمر مكانتي، لكن

برجاء إخباري بخبركَ المُهم هذا؛ لأنني أريد أن أطبخَ العشاء، وكذلك أنتَ لم تُعرِّف لي عن نفسكَ.

فرّدَّ عليَّ بكلِّ هدوء وثقة:

- تستطيع أن تناديني بـ: جمال، وصدقني المعلومات التي أمتلكها يتمنى كل صحافي أن يحصل عليها، بل كل إنسان في أرض هذا البلاد.

رددتُ عليه ضاحكًا:

- ربما خبركَ عن إسقاط القروض عن المقترضين، أو هو عن قرار بمنح كل مواطن مسكنًا مجانيًّا، إذا كنتَ تقصد أن الخبر الذي تملكه مثل هذه الأخبار، فرجاء أن تتواصل مع الزميل فهد حمد؛ فهو يكتب في مثل هذه الأمور، وسأرسل لكَ رقمه وتواصل مع..

فقاطعني بحدة:

- بل أمتلكُ معلومات عن القاتل المتسلسل.

كان ردُّه مُفاجئًا لي، لكنه لم يجعلني أنجرف معه سريعًا لما يخبرني به، فربما كان هذا مقلبًا من مسعد، أو أيّ إنسان مهووس بالشهرة، وما أكثر مَن صادفتهم خلال مشواري المهني مَن هم مثل هؤلاء الذين يريدون أن يكونوا في قلب الحدث، وهم يغردون خارج السرب، فأخبرته ببساطة:

- حسنًا إذن، إذا كنتَ تملكُ معلومات عن هذا القاتل فعلًا فقدمها لرجالِ الأمن فهُم سيفيدونكَ أكثر مني.

ضحكَ هذا المتصل وهو يُجيبني:

- يبدو أنَّك لا تصدقني، انتظر سأهديكَ هديةً ستجعلكَ تنتظرُ اتصالي بكَ.

فأجبته باستهزاء:

- وما هديتكَ هذه؟

- هل تعرف حديقة الأشجار المضيئة؟

- نعم أعرفها جيدًا، لقد قضيت بها أوقاتًا جميلة في شبابي لا تُنسى.

ردَّ علي بسرعة وبتهكم وحدة مفاجئة:

- اذهب إلى غرفة الحارس المهجورة التي في الحديقة، خلفها مباشرة سترى أمرًا سيجعلكَ تنتظرُ اتصالي بكَ بلهفة.

أغلق الهاتف فجأة بعد جملته هذه، فرميت هاتفي على سريري، وجلستُ أهزُّ رأسي وأنا أُكرر:

- قد كثروا المجانين، كثروا المجانين.

بدأ عقلي الباطن يحلل هذا الاتصال الغريب الذي أتجه لي تحديدًا، أصابع الاتهام كلّها تتجه نحو مسعد،

ربما إحراجي له أمام الزملاء دفعه لعمل هذا المقلب في شخصي، لكنه قد تأخر كثيرًا، وإن لم يكن مسعد، فما هذا الصدفة الغريبة التي تجعل هذا الاتصال يأتيني وأنا مشغول في حل هذه القضية تحديدًا؟ حتى أفلام بوليوود لم تفكر بها، ولكنْ -حقًّا- لماذا أشغل نفسي بهذه الترهات؟ سوف أُعدُّ بدلًا من كلِّ تفكيري المُقلق هذا عشاءً أُسكتُ به عصافير بطني التي تزقزق داخلها.

أعددتُ لي وجبةَ عشاءٍ دسمة، ووضعت الأطباق على الطاولة، وتناولتُ أول لقمة، ولكني رميت ملعقتي بجانب طبق عشائي؛ فهذا الفضول لا يزال ينتابني بشدة بل ويحاصر عقلي، حتى وإنْ رفض عقلي تصديق ما قاله هذا المُتصل المجهول، لكنَّ هناك فضول وُلد في داخلي، فشيء ما كان يحدثني بأن هذا المتصل قد كان جادًا معي وصادقًا في ما قاله، وبالفعل لم أصبر أكثر، فنهضتُ مُسرعًا وارتديتُ ملابسي، وخرجت من منزلي مهرولًا أتجه نحو حديقة الأشجار المُضيئة التي حددها لي في مكالمته، ركبتُ سيارتي وقدتها نحو الحديقة، حتى وصلت إلى وجهتي، كانت كل مواقف السيارات أمام الحديقة خاوية تمامًا، فلا أحد قد يزورها في هذا الوقت، فتركتُ سيارتي وحدها أمامها، وسرتُ لأقترب من سور هذه الحديقة وعقلي وضميري يعاتباني.

كانا يقولان لي: ستدفعُ ثمن فضولكَ هذا، وستعود لتجد

وجبتكَ قد بردت ولن تستطيعَ أن تلتهمَ لقمة منها، ولكني واصلت مسيري قليلًا والندم يعتريني بسبب قراري الغبي بأن أخرج منزلي في هذا الوقت بسبب اتصال مجهول ليس له أيّ أساس من المصداقيَّة، وصلت إلى باب الحديقة فعبرته ودخلت وحدي وسرت فيها، كانت الحديقة هادئة -تمامًا- لا يتحرك فيها إلَّا أفرع أغصان الأشجار وكانت أمامي مباشرة غرفة الحارس المهجورة ولكنها قد تكسَّر زجاجها ووقع على الأرض مهشمًا، وهذه الغرفة بدت لي خالية -تمامًا- من الداخل، فاقتربتُ منها ونظرت إلى داخلها وأنا ما زلت أقف خارجها فلم أجد أيّ شخص أو أيّ شيء؛ فظهرت لي فارغة -تمامًا- إلَّا من كرسي وحيد فارغ داخلها، فقررتُ العودة لسيارتي، أعطيتُ هذه الغرفة ظهري وبدأتُ أتجه نحو خارج الحديقة نادمًا على ما فعلته بنفسي، ومُستغربًا من استجابتي السريعة الفضوليَّة لهذا الاتصال الغريب، لكن فجأة أوقف تفكيري المتداعي وقطع صمت هذه الحديقة الشديد أنين يصدر من إنسان يتوجَّع.

أنا متأكد أنني سمعتُ أنينًا غريبًا، فشخص ما هنا يعاني وحيدًا من شيء ما؛ نظرتُ حولي في كلِّ أنحاء الحديقة ولكن الظلام كان يمنعني من رؤية مُصدِر هذا الصوت ويحيلني عن الوصول إليه، فقررت الذهاب إلى خلف غرفة الحارس، وهنا بدأت صدمتي.

شابٌّ مَرمي على الأرض وقد غطت دماؤه ظهره تمامًا، كان مطعونًا طعنات كثيرة في ظهره ويبدو أنه قد تعرض للقتل، ومنذ وقت ليس ببعيد.

شعرتُ بالذهول لما أشاهده أمام عيني، فاقتربتُ منه وقمتُ برفع جسمه لأنظر إلى وجهه، وسألته:

- مَن فعل بكَ هذا؟ ولماذا؟

واصل الشاب أنينه وتأوّهه من ألمه الشديد وجراحه دون أن يستطع أنْ يرد عليَّ، فأعدتُ وضعه إلى الأرض فغطت دماؤه ملابسه -تمامًا- وقمتُ مُسرعًا بإجراء اتصال هاتفي بمركزِ الشرطة، وما هي إلَّا دقائق معدودة مرت حتى كانوا يملأون الحديقة حولي، لكن ولسوء الحظ كان الشاب قد لفظ أنفاسه الأخيرة.

وكما كان الحال يحدث مع كلِّ شاهد بعينه على جريمه ما، طلبوا مني مرافقتهم إلى مركز الشرطة لتسجيل شهادتي في هذه الجريمة، وأنا كنتُ في حالة ذهول تغطي على ملامحي، ليس لما رأيته أمام عيني، لقد اعتادت عيني على رؤية جُثث تم التنكيل بها، لكن هذا الاتصال هو ما جعلني أشعر بهذا الذهول الشديد، وبدأ عقلي يتزاحم بالتساؤلات حوله والتوقعات لما هو قادم عليَّ.

لم يمض وقت طويل حتى وجدتُ نفسي جالسًا أمام المحقق هاشم فرحان الذي قد طلب لي فنجال قهوة من

ساعيه، كان يحاول أنْ يُهدئ مِن رُوعي مُعتقدًا أنني أعيش الآن في حالة من الصدمة لما شاهدته.

كنتُ أجلسُ على كرسي أمام مكتب المحقق هاشم وأنا أحاول أن يستوعب عقلي الأحداث التي تحيط بي الآن، ولكن بلا جدوى أو تفسير.

وجَّه هاشم لي السؤال الذي كنتُ أنتظره منه فعلًا وقد جهَّزت له إجابته:

- لماذا كنتَ تتجولُ في هذه الحديقة في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

مخطئون هم إن ظنوا أنني رجلًا سهلًا أو توقعوا أنني صحافيًّا سَاذَجًا قد أسلمهم مقدمة الخيط هدية قيمة بين أيديهم ليتبعوه هم، فهل يتوقعون أنني سأخبرهم بهذه المكالمة المثيرة التي استقبلتُها قبل وقوع هذه الجريمة؟ بالطبع لن أخبرهم بتفاصيلها؛ بل أنا مَن سيتتبع هذا المجرم الغامض الغريب، سأتتبعه بنفسي وعندما أصل إليه -وقتها فقط- سأقدِّمُه هدية لرجالِ الشرطة، إنَّها فرصة عمري الأخيرة.

قد أبدو -الآن- أنانيًّا، فإخفائي لأمر هذه المكالمة ولأمر هذا المتصل، يعني احتمال وقوع جرائم بشعة أخرى في مدينتنا، لكنني في مقابل هذا لن أفتح يدي لفرصة كهذه حتى تطير من بين يدي، خاصةً وأنا في أَمَسِّ الحاجة إلى

سبقٍ صحافي واحد ينتشلني من دائرة الضياع التي يريدون وضعي داخلها في الجريدة، فأنا لن أقبل بالتقاعد الجبري، سأجعلهم يتوسلون لي حتى أبقى لأعمل في جريدتهم، وحتى أُزيدَها شهرة، ووقتها سوف أُملي عليهم شروط بقائي لديهم.

- لقد كنتُ مُحتاجًا للسيرِ وحدي، ولم أجد أفضل من هذا المكان الهادئ الذي يُذكرني بطفولتي وشبابي -أيضًا- لأتمشى فيه.

وقف المحقق هاشم من على كرسيه الذي كان أمامي مباشرة ولفَّ حول الكرسي الذي أجلس عليه، معتقدًا أنني سأشعر ببعض التوتر من حركاته هذه، لكني عاجلته بإجابتي الثانية:

- معكَ جبير عبدالستار، صحافي أمني، إذا كنتَ تقرأ الصحف سابقًا ستعرفني جيدًا.

توقف المحققُ هاشم عن دورانه وثبت في مكانه أمامي، ونظر إليَّ بدهشةٍ شديدةٍ، وقال بسرعة:

- جبير الحصري!

ابتسمتُ بمكر، وأزلتُ تعجبه:

- نعم، أنا هو.

قفز هاشم ليجلس في الكرسي المقابل لي مرة أخرى،

وقال بكلِّ حماس:

- أبي دفعني للدخول في مجال عمل الشرطة وخاصة مجال التحقيقات بسبب ما كنتَ تقوم به سابقًا، إنَّه لمِن دواعي سروري الجلوس أمامكَ.

ثم تلاشت ابتسامته، وهو يقول:

- لكن إعجاب أبي بكَ شيء، وعملي هنا شيء آخر.

فما سبب وجودكَ في مسرح هذه الجريمة بعد وقوعها بقليل؟

نظرت في عينيه مباشرة، ورددتُ:

- لا أعلم، ولا أعلم سبب هذه الصدفة الغريبة التي قادتني إلى هذه الحديقة، ربما هي رسالة ما؛ حتى أتولى التحقيق في جريمة أعجزت الأجهزة الأمنية، وشلَّت قدرتها في كشف غموض الجرائم، ومن يدري فقد يُوجد في النهر ما لا يوجد في البحر، وأنا بخبرتي الطويلة قد أصل إلى حلٍّ لهذا اللغز الذي أرّقكم طويلًا.

نهض هاشم من مكانه وعاد ليدور حولي من جديد، وقال لي:

- بحكم تجاربي في مجال التحقيق، أعلم جيدًا أنَّ الصحافي لا يكون موجودًا في أيِّ مَسرح للجريمة مصادفة أبدًا، فربما وردكَ اتصال أو أنتك رسالة أو رأيت إشارة أو..

قاطعت تداعي أفكاره:

- سوف أختصرُ عليكَ الطريق يا حضرة المحقق.

ما رأيك في أن تُلقي تهمة القتل هذه الجريمة عليَّ مباشرة، باعتبار أنني الشخص الوحيد الذي كان موجودًا في الحديقة ساعة وقوع هذه الجريمة، ولكن عليكَ -أيضًا- أنْ تبحثَ عن متهمين آخرين عندما تتكرر مثل هذه الجرائم في الأيام المقبلة، هناك شيء أيُّها المحقق يُسمى الصدفة، للأسف المجرم -الآن- يعيشُ حرًّا طليقًا وربما يُعدُّ لجريمةٍ أخرى، وأنتَ تُضيِّع الوقتَ في استجوابي.

ابتسم المحقق هاشم، وردَّ عليَّ:

- هل تعرف ما قالته أجاثا كريستي؟

لقد قالت: «إنَّ أبعد الاحتمالات، هو أقربها للحقيقة».

فقمتُ بالردِّ عليه:

- آه، أجاثا كريستي، لكن هل تدري أنَّ الكاتب سوفوكليس -وهو أحد أعظم الكُتَّاب في الجدل والمناظرة ومن أقوي قادة الجيوش-، قد قال:

«لماذا يشعرُ الإنسان بالخوف ما دامت الصّدفة -ولا شيء غيرها- هي التي تقود خطاه!».

لهذا لن أشعر بالخوف يا عزيزي، وعليكَ أن تؤمِن بالصدف التي تقودنا إلى هذه الأقدار.

كان الكلام والجدل هو لُعبتي المفضَّلة تمامًا مثل سوفوكليس، وما كان للمحقق الشاب هاشم هذا أن يغلبني في مجادلة، فكلّ الأسئلة التي طرحها أمامي كانت ردودها مسجلة في عقلي وحتى قبل أن يسألها لي، فقط كنتُ أتلوها عليه باستخفاف وهدوء مستفزين، بينما وقف سؤالي الأخطر على الإطلاق لنفسي، كثعبان يهُم بلدغي:

مَن يكون هذا المتصل الغامض؟

حاولت تفادي هذا السؤال الثعباني وقلتُ لنفسي:

«لقد عادت حظوظي الحسنة وعليَّ استغلالها دون البحث طويلًا عَمن جلبها لي».

خرجتُ من مركز الشرطة وقصدت منزلي وأنا انتظر اتصالًا ثانيًا يدفعُ بي تحت بقعة الضوء والشهرة أكثر وأكثر.

***

مُراقَبٌ أمنيًّا

هل قُبض عليه؟

سكنني هذا السؤال المحير بَعد أنْ تجاوز اختفاء اتصالاته الوقت الذي حددته بكثير، ولكني ولأول مرة أحصل على شريك لي في العمل، هو يقتل وأنا أنال السبق الصحافي الحصري الذي يرفعني بسرعة على درجات الشهرة.

قلقتُ على ما قد أنجزته، فقد كنتُ قد فقدتُ أهميتي كصحافي جرائم، وها أنا أعود بقوة مُتصدرًا كما كنتُ ومُستعيدًا لمكانتي السابقة، وليس لدي أية نية في أن أعود إلى القاع مرة أخرى حيث يعيش الفاشلين والمنطفئين.

لم أفكر بأن ثمن سعادتي قد يكون هو الانطفاء لسعادة أسر الضحايا، ولم أفكر إلَّا في نفسي التي أعشقها، لقد وصلت أخبار وجودي في مكان الجريمة إلى كلِّ مَن في جريدتي سريعًا، فقد كنتُ ألحظُ -منذ أنْ دخلتُ ردهة مبنى الصحيفة- نظرات الزملاء لي وهمساتهم باسمي.

لا أعرف إنْ كانت همساتهم هذه بأمور إيجابية أم بأمور سلبية، لكن كان من ضمنها تساؤلات مثل:

«هل يعود الزمن الذهبي لجبير؟»

أو «هل يعرف جبير القاتل المتسلسل، أو هو على علاقة

به؟».

دخلتُ إلى مكتبي، ووضعت حقيبتي فوق المكتب، وأخرجت منها أغراضي، وبمجرد أن جلست على الكرسي شاهدتُ مسعد يأتي مسرعًا نحوي، اقترب مسعد من باب مكتبي وأدار مقبضه وفتحه مُهللًا ومُرحبًا بي، دخل إليَّ وهو يحمل في يديه قلم وأوراق، وجلس على الكرسي الذي أمامي وقال لي مندفعًا بعد أن فتح مسجِّل الصوت على هاتفه ووضعه بجواره على مكتبي وأمسك أوراقه وقلمه وبدأ في الكتابة:

- أستاذنا الكبير، أخبرني من فضلِكَ بتفاصيل هذه الجريمة التي رأيتها.

ماذا حدث؟ وماذا شاهدت هناك؟

أخبرنا بكلِّ التفاصيل الدقيقة لما حدث أمامكَ.

فنحن نريدُ أنْ ننفرد بها في عدد الغد من جريدتنا الذي نقوم بتجهيزه الآن؟

ضحكتُ لما قاله لي، وقمتُ بالردِّ عليه وأنا أرتبُ بعض الأوراق والأقلام على سطح مكتبي:

- ولماذا تكتبها أنتَ يا مسعد؟

أتعتقد أنني لا أعرف الكتابة!

ترك مسعد كرسيه ووقف ليطبع قبلة سريعة على رأسي،

وهو يقول:

- لا، أعوذ بالله، لا أقصد هذا طبعًا، لكنكَ تعرف أنني المُكلَّف بمتابعة هذه القضية، وكذلك قد أوصاني مدير التحرير بأخذ المعلومات كلّها منكَ وكتابتها، وإعدادها للنشر.

بصراحة لم أكن أشعر برغبة في كتابة الأحداث المريبة التي قد رأيتها، ففضلت أن أرضخَ لطلبه هذا إذا كان من مدير التحرير الذي لا أريد أن أكون على علاقة سيئة معه -الآن- فربما كان بيده قرار الاستغناء عني، وليس هذا الوقت هو الوقت المناسب لخلق عداوات جديدة لي، فبدأت أحكي له:

- اكتب يا مسعد، اكتب.

جلس مسعد مرة أخرى على الكرسي الذي أمامي وبدأت أنا في الحديث عما شاهدته منذ دخولي إلى حديقة الأشجار بحجة شعوري في الرغبة في أن أسير وحدي، وحتى ما حدث في كواليس التحقيقات معي بمركز الشرطة.

لا أنكرُ أنني قمتُ بزيادةِ بعضَ التَّفاصيل المثيرة مِن تأليفي الخاص مِن باب زيادة الإثارة والتشويق الصحافي في المقام الأول؛ حتى يأخذ الموضوع حقَّه كاملًا، وأيضًا من أجل إشعار مسعد وبقية الزملاء أنني ما زلت أتمتع بحاسة

كشف تفاصيل الجرائم وملابساتها، وما زلت أتمتع بطرق عرض مشوقة ومثيرة.

انتهى مسعد من كتابة ما أمليه عليه بدقة، واستأذن مني وخرج من مكتبي واتجه لمكتبه، وما هي إلَّا ساعة مضت بعد خروجه حتى وردني اتصال من مكتب رئيس تحرير جريدتنا يطلب مني أن أقابله على الفور، من الجيد أن ألتقي أبو عثمان رئيس التحرير، هذا الرجل السبعينيّ السطحي الذي لا يفقه شيئًا في الصحافة أبدًا، ولكنه يملك علاقات وطيدة بمُلاك مؤسستنا الصحافية، والجميع -هنا- يعرف أنَّ علاقاته هذه، هي التي أوصلته لهذا المنصب الرفيع.

وصلت عند باب مكتب أبو عثمان؛ حيث كانت تنتظرني دارين سكرتيرته الجميلة ذات الشعر الأشقر الطويل والملامح التي تُشبه -إلى حدٍ كبير- إحدى نجمات الشاشة الفضية، لا أعرف بصدق مَن التي رأيتها في الشاشة لكن هي أحد هؤلاء المشاهير هناك، طلبت دارين منّي أنْ أنتظرَ لبعض الدقائق أمام المكتب قبل أن تدخل هي قبلي إلى مكتبه، ثُمَّ خرجت منه وهي تطلب مني الدخول إليه لأنه ينتظرني بشوقٍ.

فور دخولي إلى مكتب أبو عثمان، تذكرتُ آخر مرة وطئت قدماي مكتبه هذا، كان هذا قبل ستة أو سبعة أعوام؛ حيث كنتُ بصدد تقديم شكوى أشكوه فيها من

أحد الزملاء، وأذكر أن هذا الرجل ردَّ عليَّ بغضبٍ لأنه ليس مسئولًا عن الشؤون الإدارية أو القانونية بمؤسستنا الصحافية، وطلب مني ترك مكتبه والخروج منه لأعودَ لمكتبي لاستكمال عملي.

كان تذكري لهذا الحدث معه هو الذي جعلني أرفض الذهاب إلى مكتبه مرة أخرى مهما كانت الأسباب أو الدوافع، لكن اليوم أنا مجبر على الذهاب إليه، فربما دخولي في هذا المكتب اليوم يكون حماية لي من المقصلة التي تُعَد للموظفين في مؤسستنا هذه.

فور أن لمحني أبو عثمان داخلًا إليه رحبَ بي كما لم يُرحِب بي مِن قَبل، ثم طلب من فرَّاشه أبو حاتم أن يُعد لي فنجال قهوتي المُفضَّل ويحضره لي في مكتبه، كان أبوعثمان يرتدي ملابس رياضية خفيفة، وقد هذَّب شاربه الأبيض جيدًّا، ووضع نظارته الطبية المظللة التي يحاول بها إخفاء كبر سِنَّه تحت شعره الأسود المصبوغ، وكانت تُضيء أمامه شاشة الكمبيوتر المحمول الصغير الخاص به والتي ينبعث منها صوت أغنية مجهولة، وسلَّم عليَّ بلهفة:

- أهلًا ببطلنا.

كانت أولى كلمات أبو عثمان لي مُشجِّعة جدًّا حقًا، فأكمل بالحماس نفسه:

- غدًا الكل سيفاجأ بما يحتوي عليه عددنا الذي نجهزه للغد، من حسن حظنا أنَّك ذهبتَ إلى هذه الحديقة بالصدفة، هذا الصدفة جميلة جدًّا.

رسمت ابتسامة صفراء على وجهي، وأنا أجيبه:

- ليست جميلة كما تظن.

فردَّ عليَّ أبو عثمان باقتناع:

- بل جميلة، لا تقل إنَّها ليست جميلة، أعرف أنَّ هناك جريمة قتل حدثت وهذا جُرم بشع، لكن هناك مبيعات للجريدة ستزداد من وراء حدوث هذه الجريمة، وخاصةً أنَّ شاهد العيان الوحيد في هذه الجريمة الفظيعة هو أحد أبطالنا.

دخل أبو حاتم المكتب يحمل صينيته المدورة الصغيرة عليها فنجال قهوتي فأمسكه بأصابعه بحرص ووضعه أمامي على مكتب أبو عثمان، بينما كان أبو عثمان -المتحمس من عرض هذه القضية بكل تفاصيلها على صفحات جريدته- يطلب مني أن أخبره بكلِّ ما حدث وشاهدته أمامي بالتفصيل.

بدأت في احتساء قهوتي، كنتُ أشربها شيئًا فشيئًا وأنا أعيد أمامه حكي هذا الحديث الذي قد لقنته لمسعد منذ ساعة تقريبًا، وبَعد أنْ انتهيت مما أحكيه وانتهى معه احتسائي لفنجالي، سحب أبو عثمان ورقة من بين بعض

الأوراق المتراصة أمامه فوق مكتبه بعناية، وقام بتمزيقها لأجزاءٍ صغيرة وألقاها في سلة القمامة الصغيرة التي كانت بجوار مكتبه، ثم قال لي بصوت بشوش:

- هل تعرف ما تحويه هذه الورقة التي مزقتها؟

- لا، لا أعرف بالتأكيد.

- هي مذكرة تحويلكَ إلى التَّحقيق بسببِ قلة إنتاجك معنا، وقد كان الهدف منها أن نُنهي خِدْماتك -هنا- دون أن نمنحكَ مكافأة نهاية خدمتكَ بِناءً على القوانين الموضوعة بشأن الموظفين في المؤسسات.

في الحقيقة استغربت من صدقه وصراحته وعدم خجله مما يقوله لي والتي أراها وقاحة، فقال مُكملًا:

- أعلم، أعلم يا جبير أنَّ بداخلكَ ألف سؤال وسؤال حول سبب هذا التصرف المفاجئ، ولكن أنتَ وأنا نعرف الوضع المالي الحالي المؤسف لمؤسستنا الصحافيَّة، وندري بأن لدينا مشاكل مالية جمّة نعاني منها ونتأثر بها بالسلب، وبكلّ وضوح إنَّ مكافأة نهاية خدمتكَ التي ستحصل عليها ستتسبب لنا في إحراج مالي كبير، لهذا فكَّر أحد موظفينا المخلصين في هذه الفكرة المناسبة.

بدأت ملامحي أمامه تتغير نحو الجدية والحزم، وأزحتُ عنها ملامح التملق والمجاملة التي اعتلت وجهي منذ دخولي عليه، فأكمل مُسرعًا:

- انظر يا جبير، بعد تفكيرنا في هذا السبق الذي سنحصل عليه بسببكَ، شعرنا أننا قد قسونا عليكَ؛ لذا تراجعنا عمَّا كنا ننوي تنفيذه، ولكن لديّ هنا مذكرة أخرى تخصكَ.

رددتُ بصوت لا يخلو من السخرية:

- مكيدة أخرى؟ أم ماذا؟

ضحك أبو عثمان وهو يشير بأصبعه تجاهي، ويقول:

- دمُّكَ خفيف، دمُّكَ خفيف، لا، إنَّها مذكرة إنهاء خِدمتك كموظف لدينا.

كان قاسيًا، يقولها بكل أريحية وهدوء، لم ينظر حتى بعين العطف لموظف أمضى نصف عمره في خدمة هذا المكان، وأكمل كلامه إليَّ:

- لكن من الممكن أن أمزقها -أيضًا- يا جبير.

- كيف؟

- سبق آخر، جهز لنا سبق آخر يا جبير، وأعدكَ بأنني سأحرقها ولا أكتفي بتمزيقها فقط.

رغم ضيقي من طريقة كلامه، إلَّا أنني شعرت بسعادة غامرة، فهناك سبق قادم لا محالة، فمن أخبرني بهذه الواقعة الماضية قد يُكرر اتصاله بي في أيِّ وقت ليُهديني قصةً أخرى من شأنها أن تجعلني أستمر في عملي لأطول فترة

ممكنة في هذه المؤسسة الصحافيَّة.

لكن يا تُرى، متى سيتصل هذا الرجل الغامض وينقذ اسمي ووظيفتي؟ يا لأفكاري الشريرة! فقد صرتُ أنتظر اتصاله بل أتمناه؛ كي يخبرني فيه هذا المتصل الغريب بوقوع جريمة ثانية في مدينتنا وحتى أحظى أنا بالسبق الصحافي الخاص بها، وكذلك أحظى بالرضا عني من المسئولين عن المؤسسة الصحافية، وأنجو من شرورهم القادمة إليَّ.

انتهى وقتي مع أبو عثمان رئيس التحرير؛ فخرجتُ من مكتبه واتجهت إلى مكتبي، دخلتُ مكتبي ففوجئتُ بباقة من الورود موضوعة فوق مكتبي تتوسطها بطاقة صغيرة مكتوب عليها جملة توضح أنَّها مهداة من موظفي الجريدة بمناسبة هذا السبق الكبير الذي نفذته وهذا النجاح الذي حققناه.

ورود، ورود.

كنتُ أرددُ هذه الكلمة بداخلي، وأتذكر آخر مرة قُدِّمت لي باقة ورود مهداة، كانت من زوجتي الأخيرة فاتن والتي قمتُ بتطليقها بعد أن طلبت مني أن أترك عملي في الصحافة فأخبرتها وقتها أنَّ الصحافة هي زوجتي الأولى والأحب إلى قلبي، وأنها زوجتي الثانية؛ لهذا سارعت فاتن بطلب الطلاق مني ونزلتُ أنا عند رغبتها.

قد تستغربون كيف أقارن بين عملي وزوجتي، بل وأفضله عليها، نعم عملي بالنسبة لي هو في المقام الأول قبل زوجتي وقبل أبنائي وقبل الجميع، فعملي هذا ليس مصدر رزق أحفظ به ماء وجهي فقط، لا إنَّه حلُم ظل يراودني منذ طفولتي، ما زلتُ أذكرُ عندما كنتُ صبيًا أتلقف الصحف أو بقاياها من المهملات أو من الدكاكين وأطالعها بعفوية، ثم أتخيلني صحافيًّا يكتب أحد مقالاتها المميزة ويُذيل مقاله بالحروف الأولى من اسمه.

مر هذا اليوم سريعًا، قضيت معظمه وأنا متوتر وقلق، كنتُ أحمل هاتفي بين يدي ولا أتركه أبدًا، فقد كنتُ أنتظر رنته السحرية التي ستنتشلني من الضياع القادم، وستنقذني من مشنقة التقاعد الجبري التي عُلقت وجُهزت لي، وستخلصني من هذه المذكرة اللعينة التي حتمًا قد وسموها بـ (قد انتهت صلاحيته).

الأيام كانت تمضي سريعة دون جديد يذكر، إلى أن جاءت البشائر بعد مرور قرابة أسبوعين تقريبًا من الاتصال الأول، فقد أعاد هذا المتصل الاتصال بي من رقم غريب آخر، اتصل بي هذا الرجل المجهول، فرددتُ مُسرعًا، وعاجلته بإجابتي عليه التي كان حماسي وشوقي يغطيانها:

- أهلًا.

- اذهب إلى طريق المطار البري، بالقرب من مضخة

المياه، هناك في الخلف ستجد قصةً جديدةً.

وأغلق الهاتف مباشرة معي بعد أن انتهى من نطق جملته هذه على مسامعي، دون أن يذكر لي أية تفاصيل أخرى توضح لفَهمي معالم ما قاله، ولكني لم أدخر وقتًا؛ فأسرعت بركوبِ سيارتي وتوجهتُ نحو الوجهة الجديدة التي طلب مني أن أتوجه إليها، إلى طريق المطار البري.

وصلتُ إلى طريق المطار، كان الطريق خاليًا إلَّا من بعض السيارات التي تعبر مسرعة من بعيد كل مدة، تركت سيارتي ونزلت لأبحث في هذا المكان الخالي عن مضخة المياه هذه التي ذكرها لي في مكالمته؛ رأيتها كانت على مقربة مني فتوجهت خلفها مباشرة وأخذتُ أفتش بترقب وبشيء من الخوف، ولم تمض عدة دقائق من بحثي حتى وجدت خيطًا من الدم يسري على الأرض كثعبان، تبعتُ الدم بنظري فشاهدتُ جثة ثانية لرجل مسن قد وقع على وجهه، كان يبدو أنه يقترب من الستين من عمره، كان دمه يخرج من ظهره ويسري على الأرض وقد صنع تحته بركة حمراء.

كان يبدو على هذا الرجل المسن من هندامه الأنيق وساعته الثمينة جدًّا التي كان يرتديها في معصمه الأيسر أنَّه رجل مهم أو هو أحد أثرياء مدينتنا، لكن الغريب أنه تم الإجهاز عليه بالطريقة ذاتها بالضبط، فقد وجَّه القاتل إليه طعنات متتالية في ظهره أوقعته على وجهه وأودت بحياته.

عاينتُ الجثة وتفحصتها دون أن ألمسها، ثم تحركت بحرصٍ وأنا أبحث في المكان المحيط بها عن أيّةِ أداة قد تكون هي أداة تنفيذ هذه الجريمة، أو أيّ دليل قد يوضح هُويته، وبعد أن أنهيت بحثي في هذا المكان الخالي بلا جدوى، فكرتُ أنْ أُكرر اتصالي بمركز الشرطة؛ لكنني تذكرتُ ما ستسفر عنه تحقيقاتهم معي وتساؤلاتهم التي سيوجهونها إليَّ، وفكَّرتُ فيما قد أتعرض له من ضغوطات قويَّة قد يعرضونني لها حتى أعترف بسبب وجودي في مسرح جريمة لمرة ثانية على التوالي بشكل لن أستطيع أن أقول إنه صدفة هذه المرة.

مشيتُ مُبتعدًا عن الدماء التي صارت تملأ الأرض هنا وتوجهتُ نحو سيارتي وركبتها، جلستُ على الكرسي داخلها ولم أتحرك بها، أخرجت أوراقي وقلمي من حقيبتي وقمتُ بكتابة كلّ ما شاهدته بالتفصيل، ثم أدرتُ سيارتي وتحركتُ مغادرًا بسرعة هذا المكان الخالي.

في اليوم التالي، ومع إعلان الشرطة للجريمة، وعثورها على ضحية جديدة للقاتل المتسلسل الذي اتسعت رقعة شهرته اكثر، قمتُ على الفور بنشرِ التفاصيل الأخرى المتعلقة بوصف مكان هذه الجريمة البشعة ووصفتُ الحالة التي كانت تبدو عليها جثة هذا الرجل الثري المقتول، وذكرتُ في موضوعي الصحافي كل ما دونته في أوراقي وأنا جالس في سيارتي بالقرب من هذا الرجل، وكما كان متوقعًا

فقد تصدَّرَ الخبرُ صفحات جريدتنا ولم يقتصر الأمر على هذا فقط؛ بل تصدر عناوين النشرات الإخبارية ومواقع التواصل الاجتماعي الشهيرة التي تناقلت بسرعة كبيرة ما كتبته من وصف.

بعد ساعات فقط اتصل بي المحقق هاشم مجددًا ليطلب مني المثول أمامه في مكتب التحقيقات في اليوم التالي، وقد فعلت ما طلبه مني، فذهبتُ إلى مبناهم ودخلت إلى مكتبه وأنا أمشي كالطاووس متسلحًا بثقتي وعزيمتي، ولمعرفتي أنَّ هذا المحقق الشاب لن يستطيعَ أنْ يهزمني أو يقتنص مني شيئًا حتى لو كانت معلومة واحدة.

كان المحقق هاشم ينتظر وصولي أمام باب مكتبه، وما أن شاهدني حتى استقبلني بابتسامة باردة، وطلب مني الدخول لمكتبه والجلوس، ثم سألني إن كنتُ في حاجة لفنجال من القهوة قد يزيد من تركيزي أثناء التحقيق فقبلت بفنجال منها فطلبه لي من ساعيه، وبدأ هو في طرح أسئلته التي أعدَّها جيدًا والتي توقعتها قبل مجيئي إلى هنا:

- أستاذ جبير، مِن أين لكَ بكلِّ هذه التفاصيل التي قمتَ بنشرها عن جريمة القتل الأخيرة؟ هل قادتكَ الصدفة -أيضًا- إلى مسرح الجريمة مرة ثانية!

- لا، أنا لَم أمر هناك بالصدفة يا حضرة المحقق.

ولكن أنا لديّ الكثير من مصادري الخاصة التي تُخبرني

بكلِّ ما يجري في مدينتنا بالتفصيل.

صمت هاشم قليلًا، وقال لي:

- كلامكَ يعني أن يبننا مُسربين للأخبار، يقومون بتسريبها لكَ، وهذا يتنافى مع طبيعة عملنا التي تتطلب السرية التامة، فهل من الممكن معرفة هؤلاء الأشخاص الذين ينقلون إليكَ المعلومات؟

ضحكتُ بصوتٍ عالٍ قبل أن أخفِّضَ صوتي، وأنا أجيبه:

- آسف، آسف يا حضرة المحقق، أنتَ تعرف جيدًا أن مصادر الصحافي مثل كرامته، إن كشف سرها، خسر كرامته معها؛ لهذا اعذرني، وتقبَّل رفضي بأن أجيب عن سؤالكَ هذا.

لم أتحمل سؤاله هذا المثير للضحك، وقد بدا لي هذا المحقق الشاب غاضبًا هذه المرة، ربما بسبب ضحكتي العالية التي ضحكتها قبل أن أجيبه، مؤكد أن هذا قد استفزه؛ لأنَّ الضحك والاستهزاء هو إعلان لهزيمة الشخص الذي يقفُ أمامكَ، فردَّ عليَّ بتهكم:

- انظر يا هذا، إذا كنتَ تريدُ البحث عن سبقٍ صحافي على حساب مآسي الناس وأرواحهم، فأنتَ تجعلُ مِن نفسكَ إنسانًا مسخًا لا قيمة له ولا مشاعر، وإذا كانت لديكَ أية معلومة عن القاتل عليكَ أن تساعدنا بها، لا أن يكون أكبر همكَ هو الجري وراء أيّ سبق صحافي، بينما

يعيش الناس حالة من الخوف والترقب، أرواح البشر ليست لعبة يا سيد جبير.

لا أعلم لماذا لم يهز كلامه أيّة شعرة في جسمي، أو يؤثر حتى في مشاعري، هذا الشاب متوسط القامة الذي تشبه ملامحه ملامح الممثل الكوميدي الأميركي بوب ساجيت كثيرًا، أعلم أنَّه كان صادقًا، لكنني شعرت أن مصلحتي -الآن- فوق أيّ اعتبار.

هنا أدركتُ معنًى حقيقيًّا لكمٍ كبيرٍ من الأعذار التي يتلاعب بها بعض رجال السياسة بمشاعر ومستقبل الشعوب من أجل مصالحهم الشخصية فقط، وعلمت جيدًا أن مصلحة الفرد تكون -أحيانًا- أغلى وأثمن من كلِّ يملكه.

تلاشت الثقة، ومحيت الابتسامة التي كانت مرسومة على كامل وجهي، واستبدلتها بملامح جِدية، وخاطبت بها هذا المحقق الغاضب:

- لا أعلم لماذا كل هذه العصبية!

لم أتاجر قَط بمآسي أو أحزان الناس، فهدفي وهدف الصحافة كاملة أن توضِّح للناس والمجتمع الخائف كما تصفه أنتَ حقيقة ما يجري حوله، وأكررها لكَ، لا ترموا فشلكم في الإمساك بهذا القاتل المتسلسل علينا -نحن أهل الصحافة- فنحن نعملُ من أجل الناس أيضًا، ومن أجل

الـ..

قاطعني هاشم بحدة:

- لا تحاول يا سيد جبير أن تحوِّل كلامي إلى صراع بين الشرطة والصحافة، هذا الموضوع يخصكَ وحدكَ، ولكن تأكد أننا لن ندعَ محاولاتكَ في خداعنا تمرُّ بسهولة، وسنعرف الحقيقة قريبًا.

نهضت من مكاني مستعدًا للرحيل حتى قبل وصول القهوة التي قام بطلبها لي من ساعيه، وأنا أردُّ عليه:

- إذن قد انتهى دوري الآن، عندما تعرفون الحقيقة أخبروني.

غادرت مكتب المحقق هاشم وأنا أفكر في أنني من الآن ربما سأكون مراقبًا أكثر من ذي قبل من قِبل السُّلطات الأمنية؛ لهذا يجب عليَّ أن أتوخى الحذر في مرتي المقبلة حين أتوجه لاكتشاف الجريمة التالية، لأن رؤيتهم لذهابي إلى مكان جريمة هذا القاتل التالية سيعني -بلا شك- أنني على اتصال مباشر معه، وربما يعني أنني أشاركه في تنفيذ جرائمه، وبعدها سأدخل حقًا في سلسلة من المتاعب التي ستلاحقني.

عدت إلى الصحيفة يومها، دخلت المبنى بينما كانت كلّ الأنظار تزداد تصويبًا نحوي، وشعرتُ أن جبير المرموق قد عاد لسابق عهده في هذه الجريدة.

كل خُطوة كنتُ أتقدمها داخل المبنى وأنا متجه لمكتبي كنتُ أسمع فيها كلمات المديح تنهال عليَّ بكثرة مِن كلِّ زميل أقابله، وكانت هذه الكلمات ذات الوقع السحري في أذني سببًا مباشرًا في تفكيري في هذا المحقق وما جرى في هذه الغرفة، بل جعلت طمعي يزداد وطموحي يعلو في أن أنال سبق قصة ثالثة، لكن هذه المرة القادة يجب أن أكونَ فيها حذرًا، حذرًا للغاية.

***

صَمتٌ مُريب

انتظرتُ الاتصال الثالث من هذا الشخص المجهول الذي صار شريكًا لي وأصبح سببًا من أسباب سعادتي ودافعًا من دوافع رفعتي واكتفائي بما أفعله، لكن في هذه المرة قد طال الانتظار مع التوقف التام لاتصالاته ولأخباره ولجرائمه.

أمره أصبح محيرًا فعلًا لعقلي، فأنا أعلم أن هذا القاتل المتسلسل لا يتوقف عند ارتكاب جريمة ما، بل هو يصل كل جريمة يتنتهي بجريمة قتل تالية لها بكلِّ حب وبكلِّ رغبة، لكن يبدو أن هناك أمرًا قد استجد لديه، أو ربما قد قُبض عليه وانتهى أمره ولم تكشف الجهات الأمنية لدينا أية تفاصيل عنه أو عن طريقة الإمساك به.

في هذا الوقت شعرتُ أنني صرت مراقبًا في كلِّ أوقاتي وفي كلِّ تحركاتي، فأمام منزلي مباشرة وقفت سيارة باستمرار يجلس بداخلها شخص يرتدي ملابس كلها سوداء، وصرت أرى هذه السيارة تقف هكذا أمام منزلي ليل نهار، هذا الشخص الذي لا يخرج منها أصبحتُ أميز ملامحه جيدًا فكان يجلس في هذه السيارة في الصباح وفي المساء يُستبدل بشخص آخر، يرتدي مثل ملابسه السوداء، وكلاهما لا يتزحزحان من مكانهما الذي استقر أمام منزلي، وأيضًا كنتُ أشعر أثناء ذهابي لأيِّ مكان بأنَّ خلفي من يتبعني، فألتفت ولا أجد أحدًا.

شعوري بأنني صرتُ مراقبًا هو شعور بغيض جدًّا، يُضيق عليَّ صدري، فأنا بطبعي أحب الخصوصية التامة التي لا يتلصص عليها أحد مهما كان، ولا أرغب أبدًا في لفت الأنظار إلَّا في الأماكن التي أراها مناسبة.

في جريدتنا قد تجاوزتُ رياح التغيير كما كان متوقعًا، ومرَّت من أمام وجهي كنسائم لطيفة، لقد غادرنا الكثير من الزملاء رغمًا عنهم، لا أُنكر أنَّ بعضهم كان يرمقني بنظرات متحسرة وكأنَّهم كانوا يسألون أنفسهم، لماذا أنا أبقى متربعًا على كرسي مكتبي، بينما هم يُطردون؟ لماذا يرحلون هم بسهولة، وأظل أنا؟

كان في ودي أن يقوم أحد منهم بتوجيه سؤال بعض هذه الأسئلة إليَّ؛ لأجيبه بأنَّ القَدر إذا ابتسمَ لكَ، فكلّ الظروف ستقف حتى تدفع مصلحتكَ نحو الأمام، وأنا ومن حُسن حظي قد ابتسم لي قَدري في الوقت المناسب مما جعلني أواصل عملي بل وأتربع على عرشه وأعيد الثقة فيما أكتبه لقرائي.

لكنْ -وعلينا الإيمان بهذا الأمر- رغم أنَّ الإنجازات تبقى، لكنها مع مرور الأيام قد يخفّ بريقها أو يزول تمامًا، وقد تجد الإشادات بكَ تقل حتى تختفي إلى الأبد، وحتى الاهتمام بكَ قد يغيب وهو يُرهقُ رُوحكَ.

مكتب أبو عثمان رئيس التحرير الذي أصبحت أزوره

كل صباح بعد أن كشفت بعض أسرار هذا القاتل الغريب بدأ يُقفل في وجهي، فأصبحتُ أعتادُ على سماعِ ترديد سكرتيرته دارين أمامي لمقولة:

«السيد أبو عثمان مشغول الآن، ولكن إذا احتاجكَ سيتصل عليكَ».

ولكن هذا الرجل المسئول لم يعد يحتاجني ثانية، إن أمنيتي في حصولي على صكِّ بقائي في هذه الصحيفة يجعلني لا أودُّ أنْ أتراجع أبدًا عن اهتمامي بهذا القاتل غير المعروف، بل ازدادت أهمية أمره لديّ بعد أن تذوقت بمساعدته حلاوة الإنجاز ورأيت سحره يحقق لي ما تمنيته، وأصبحتُ مستعدًا للحصول على أية معلومة أخرى منه تجعل اسمي يعود مُجددًا لصدارة الصفحات، مهما كلفت هذه المعلومة من ثمن، ومهما أخذت من جَهد، ومهما احتاجت إلى مخاطرة.

لقد حاولتُ التَّواصل مع الجهات الأمنية المختلفة فربما أحصل منهم على معلومة طائشة عنه، لكن الجميع كان يخشى حتى أن يتحدث معي وخاصة في هذا الأمر، بل كانوا يخشون أن يلقوا حتى السلام عليَّ.

المحقق هاشم أوصل ما قد قلته له وتناقشت معه فيه للجهات العليا والتي بدورها قامت بتحذيرهم من التصريح للصحافة بأيّة معلومة وخاصة إلى هذا الوغد المسمى جبير، نعم نعم الوغد، شعرت أن هذا المحقق يصفني بهذا

الوصف، خاصة وأنني قد عاملته بوقاحة في تحقيقه الأخير معي، عليَّ الآن أن أعترف بهذا الأمر، لا يمكنني الادعاء أنني -دائمًا- على حق.

استقبلنا العام الجديد، دخل علينا؛ فرسم الناس أرقامه 2019 في كل مكان، وأضاء بأنواره وفرح الناس باحتفالاته وتهنئاته، ونسى المواطنون هذا القاتل الذي أرقهم كثيرًا، ولم يعد يتذكره أحد أو يتذكر ما فعله في مدينتنا، حتى الصحافة كلها لم تترك تساؤلات حول غيابه هذا، مِن الغريب أنَّ البشر يتناسون مآسيهم ومخاوفهم بسرعة هكذا، فأحيانًا بعض المخاوف يجب ألَّا تُنسى، يجب أن تظل عالقة في الذهن حتى نتجاوز من خلالها الكثير من المصاعب التي قد تواجهنا في مستقبلنا القريب.

***

عَادَ مُجددًا

كان يومًا عاديًّا من هذه الأيام التي أُصبتُ فيها باليأس من عودة اتصال هذا القاتل، قد بدأت فكرة اتصاله بي تتلاشى من ذهني وفقدت الأمل في هذا التواصل مرة أخرى، بدأتُ في إخراج أوراقي التي قد سجلَّت عليها سابقًا خُططي التعاقدية، وعدتُ بلا أهمية كما كنت في الجريدة، لكن هذا الأمر بدأ يأخذ منحنى مغايرًا بعدما وردني اتصال من رقم مجهول، فرددتُ مُسرعًا:

- أهلًا.

- اكتب يا جبير، القاتل المتسلسل يعود بجريمتي قتل دفعة واحدة بالقرب من الجامعة، أعلن في إعلان رسمي أنني عائد لنشاطي المفضل.

وأغلق الهاتف في وجهي مباشرة كعادته بعدما انتهي من جملته هذه، كان الأمر بمثابة الصدمة لي، هل سأكتب عن جريمتي قتل لم تكتشفهما الأجهزة الأمنية بعد! سيكلفني هذا أن أُتهم بتهمة التستر على مجرم خطير ولا محال من الهروب من هذا الاتهام، ساورتني فكرة أن أذهب بنفسي إلى الجامعة، وأنتظر حدوث تجمع أمني يؤكد لي أنهم قد علموا بالأمر، بعدها أبدأ في تنفيذ مهامي.

نفذت خُطتي وقد نجحت بالفعل، فبعد ساعة ونصف من الانتظار بالقرب من الشارع الرئيسي أمام الجامعة

قد غصَّ المكان بمختلف الأجهزة الأمنية وامتلأ بجميع مركباتها ومسمياتها العديدة بعدما وصلهم من أحدهم اتصال يخبرهم باكتشاف الناس لجريمتي قتل بشعتين بجوار الجامعة، ورؤيتهم لجثتين مقتولتين بطعنات وجِّهت إليهما في ظهريهما أدت لوفاتهما.

هنا سارعت بالذهاب إلى الصحيفة لأطلبَ منهم ترك الصفحة الأولى من عدد الغد فارغة ومعلقة ففعلوا هذا وسط استغرابهم وتساؤلاتهم حول التي ما لدي من أخبار والتي قد أكون على دراية بها دون غيري، ثم انطلقت كالسهم نحو مكتبي لأكتبَ الخبر الجديد، وبعنوانٍ عريضٍ:

«عودة القاتل المتسلسل»

سبقتُ بالفعل كل الصحف الأخرى ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة وحتى مواقع التواصل الاجتماعي سريعة نشر الأخبار، وها أنا جبير أعود لقمة الصحافة مرة أخرى، وأعود لتصدر الجريدة من جديد، وأرجع -كما تعوَّدت- بلفت الأنظار كلّها إليَّ، وأعود -أيضًا- لإثارة استفهامات الأجهزة الأمنية عما أقوم بفعله وكتابته في جريدتي، ولطرحها لتساؤلاتها حول غرابة وسبب أفعالي هذه، وكانت الأجهزة الأمنية قد بدأت في فتح تحقيق مشدد معي، ليس لمعرفة القاتل هذه المرة، ولكن لمعرفة من يقوم بتسريب هذه الأخبار لي.

في مساء اليوم التالي، بعدما أنهيت عملي في الجريدة متأخرًا على غير عادتي، أعدتُ أغراضي داخل حقيبتي واستعددتُ للعودة لمنزلي، وأنا أخرج من مكتبي فوجئت بوقوف المحقق هاشم أمام مكتبي مباشرة، آتى لزيارتي زيارة مفاجئة وصادمة، كان هادئًا ومبتسمًا، طلب مني أن ندخل مكتبي؛ فعدت لمكتبي واستأذن هو قبل أن يجلس على الكرسي الذي أمامي، وسألني في البداية بعض الأسئلة المتعلقة بالعمل الصحافي بشكلٍ عام قبل أنْ يُفاجئني بقوله:

- وردكَ اتصال واحد يوم حدوث جريمتي القتل اللتين وقعتا بجوار الجامعة، وكان هذا الاتصال من رقمٍ مجهول غير مُبيَّن لدينا!

- وماذا في هذا الأمر؟

كانت إجابتي عليه باردة تعبر عن قدرٍ كبيرٍ من عدم اهتمامي بملاحظته، فاستفسر سريعًا:

- في هذا الأمر يا سيد جبير، أننا نريد معرفة مَن كان المتصل بكَ، فربما يكون هو مَن قام بتزويدكَ بهذه المعلومات.

مددتُ يدي أمام مكتبي وفتحت الدرج الذي في الأسفل وأخرجتُ منه بسكويتًا اعتدت على تقديمه لضيوفي الذين يزورونني في مكتبي ووضعته أمامه، ثمَّ

رددتُ عليه:

- كنتُ أتمنى أن تكونَ زيارتكَ لي زيارة ودية من صديقٍ لصديقه، ولكنها زيارة عمل كما تبدو، لا عليكَ يا حضرة المحقق، سوف أجيبك.

كان المتصل رجلًا من دولة باكستان يدَّعي أنَّه يعمل في بلادنا هذه، وكان يريد مني تزويده بأرقام بطاقتي البنكية لكي يساعدني في إنهاء بعض الإجراءات، وبالطبع أيُّها المحقق أنا لستُ سَاذَجًا حتى أقدِّم له بيانات بطاقتي البنكيَّة بهذه السهولة كي يعبثَ بها ويسرق مالي.

ثُمَّ.. ألستم أنتم أيُّها المحقق مَن تحذرونا -دائمًا- من البوح بمعلوماتنا السرية عبر هذه الاتصالات المجهولة أو الرسائل غير موثوقة المصدر.

لم أرَ هاشم مقتنعًا بإجابتي عليه، لكنه كان لابد عليه أن يسايرني في حديثي؛ حتى يصلَ إلى ما يريده مني، والذي لن أعطيه له أبدًا، فقال لي:

- جميلٌ أنَّكَ ملتزم بما تُمليه عليكَ الأجهزة الأمنية من نصائح وإرشادات، ورغم هذا تسكت عن البوح باسم هذا القاتل، وترفض حتى تقديم الخيط الذي قد يقودنا إليه مباشرة، وهذا سيكلفك كثيرًا يا سيد جبير.

كما أنَّ الادعاء الذي قدمته بأن أحد أفرادنا هو من يقوم بتزويدك بهذه المعلومات الحصرية المهمة هو ادعاء ليس

له أساس من الصحة، لاحظ أنني الآن أكلمك بكلِّ ودّ؛ لكن لاحقًا لن يكون الكلام بينا كذلك، سوف تكون اللهجة شديدة.

بنبرة غاضبة رددتُ عليه:

- هل أعدُ هذا تهديدًا منكَ يا أخ هاشم؟

بهدوء وابتسامة مستفزين أجابني:

- لا أهددكَ، ولكن عليكَ أن تدرك أنَّ من يزودكَ بأخبارِ هذا القاتل وتفاصيل جرائمه في حينها، سوف يدور عليكَ قريبًا، وساعتها لن نُشفقَ عليكَ أو عليه؛ لأنَّكَ من البداية لم تكن متعاونًا معنا.

أنتَ -الآن- قد تجاوزتَ صلاحياتكَ الصحافية، وتخطيتَ عملكَ كصحافي، صحيح أنَّ الصحافة هي السلطة الرابعة لأنَّها تسعى لكشف الحقيقة، لكن أجهزتنا الأمنية مهمتها الأساسية هي حماية المجتمع كلّه، وحقن دماء الناس والسهر على سلامتهم.

- لو كنتَ تعرفُ تاريخي جيدًا سيد هاشم ستدركُ أنني قد خَدمتُ المجتمعَ كثيرًا وفي عدد كبير من المناسبات؛ لهذا لا توصني بأنْ أقوم بواجب أنا أقوم به من تلقاء نفسي منذ أن قمتُ بكتابة أول سطر في هذه الصحيفة وحتى يومنا هذا.

أكرر هذا يا سيدي، وأتمنى أن تقوم بإيصال صوتي

للمسئولين، عليكم بتكثيف عملكم حول هذه القضايا مجهولة الجاني، وعليكم -أيضًا- زيادة جَهدكم؛ حتى تُلقوا القبض على هذا القاتل المتسلسل بدلًا من القيام بمحاسبة صحافي على القيام بمهامه الطبيعية.

لم يغضب هاشم بعد ثورتي المفاجئة في وجهه؛ بل شكرني بشدة على ضيافتي، وعلى وقتي الذي أنفقته معه، ووعدني بتَكرار زيارته لي في القريب العاجل.

خرج هاشم وتركني خلفه جالسًا على كرسي مكتبي غارقًا في أفكاري، هل هناك خطأ ما يحدث ولا أنتبه له؟ أم هل السبق الصحافي الذي أحظى به قد يضر الناس فعلًا؟ إنَّ هذا القاتل المجهول بقوم بإخباري بعدما يرتكب جرائمه، وأنا فعلًا لا أعلم عنه أيّ شيء؛ ولهذا فأنا لستُ على خطأ، ولا أرتكب أيّ خطأ، بل هم الذي يقصرون في أداء أعمالهم التي قد تؤدي إلى الكشف عنه، والقبض عليه بل فقط هم يبحثون عمن يرمون عليه تقصيرهم.

***

اللقاءُ المُنتظَر

وصلنا أخيرًا إلى اليوم الموعود، اليوم الذي انتظرته طويلًا، وصبرتُ من أجلِه كثيرًا، ولم أكن أُصدِّقُ أنَّه قد يأتي ويحدث فيه ما حدث معي؛ فأثناء انشغالي في قراءة تعليقات القراء على ما أقوم بكتابته من موضوعات عبر الموقع الإليكتروني للصحيفة، هذه التعليقات التي تُكتب بعد نشر موضوعاتي التي أكتبها لأسبق بها أية جريدة أخرى، قد كنتُ فرحًا مُنشرح الصدر وأنا أقرأ بكل فرح وفخر التعليقات التي تُشيد بنا، وبي تحديدًا؛ لأنني قد سبقت الجميع في نشر هذا الخبر، وتُثني على اهتمامنا بتزويد الناس بهذه المعلومات المهمة بشكل أسرع حتى من الجهات الرسمية نفسها، وقبل أن يعلونها هم حتى في لقاءاتهم.

وأنا منهمك في هذا التلذذ بقراءة تعليقات الثناء رنَّ هاتفي فرفعته أمام عيني لأرى اسم المتصل، ولكنني وجدته رقمًا مجهولًا قد عاد يتصل بي، ها هو يعود من جديد.

كان مسعد بجانبي -فقد صار يلازمني دائمًا- فلاحظ شعوري بالارتباك والتوتر بعد رؤيتي لهذا الرقم المتصل، تداركت موقفي المرتبك أمامه بسرعة، فحملتُ هاتفي في كفي وانطلقت بسرعة حتى أخرج من مبنى الصحيفة لأردَّ على هاتفي بحرية، دون أن يسمعني أحد، أو يتلصص عليَّ

أحد، وبمجرد أن خرجتُ من مبنى الصحيفة رددتُ بسرعة على المتصل قبل أن ينقطع اتصاله، فأخبرني بمفاجأة لم أكن أتوقعها:

- أريدُ أنْ ألتقي بكَ غدًا، في تمام الساعة الواحدة ظهرًا، عند الساحة الخلفية لمدينة الملاهي الشمالية.

ستجدُ هناك مبنًى مهجورًا موضوعة عليه لوحة مكتوب عليه» للترميم ثُمَّ البيع« ادخل هذا المبني واصعد ستجدني في الدور الثالث، وفي حال إن فكَّرت في أنْ تجلبَ معكَ أحدًا وخاصة من رجال الشرطة، صدقني سأخبرهم أنكَ كنتَ تتشارك معي كل جريمة أجرمتها، سأخبرهم بأنَّك كنتَ شريكي في كل ما حدث؛ بأنَّكَ كنتَ تخطط وتنفذ معي؛ لهذا احضر وسأمنحكَ لقاءً خاصًا وحصريًّا، قبل أنْ أسلِّم نَفسي للجهاتِ الأمنية، هل أنت مستعد؟

- نعم، أنا مستعد بالطبع، وأتمنى أن ألتقي بكَ اليوم قبل الغد.

- حسنًا إذن، على موعدنا بالضبط، ولكني لا أريد أن تأتي ومعكَ أية وسائل اتصال مهما كانت، لا تأتي سوى بأوراقكَ وأقلامكَ؛ حتى تدوِّن اعترافاتي فيها قبل أن أسلِّم نفسي لقيود الشرطة، ومن الممكن أن تستفيد مما سأحكيه لكَ إن سطرته في كتابٍ منشور؛ فستجني من ورائه مبالغ طائلة.

- لكَ هذا، ولكَ كل ما تطلبه.

أنهى مكالمته معي فجأة كما اعتدتُ منه، فشرد ذهني كثيرًا بعد انتهاء مكالمته هذه؛ حتى إنني لم أعد لأدخلَ مبنى الصحيفة لاستكملَ عملي؛ بل بدأتُ في السير للأمام في الطريق وأنا أفكر فيما قاله لي هذا المجهول هذه المرة، يمكنني أن أحصل على اعترافات حصريَّة منه، وكتابتها في كتابٍ به محتوى عنه لا يستطيع كتابته أحد غيري، ويمكنني أن أحصلَ من مبيعات كتابي هذا الذي سأكتبه عنه -والتي ستتخطى مبيعاته أية مبيعات سبقتها- على مبالغ طائلة، إن هذا التألق هو أفضل جائزة لي قد أحصل عليها قبل أن أنهي مسيرتي الصحافية.

هذا الكتاب الفريد المهم الذي سأقوم بكتابته عنه سيُبقى اسمي خالدًا ولامعًا في تاريخ الصحافة، وسيلازمني المجد حتى بعد رحيلي عنها، وأيضًا سأجني من ورائه أموالًا طائلة جرَّاء بيع نسخ كثيرة من هذا الكتاب المشوق، إنَّه يشوقني أنا أكثر من القراء، وأتمنى كتابته بسرعة لأنَّ هذه الأموال التي ستأتيني منه قد تجعل من فكرة تقاعدي أجمل وألذ، سأكمل حياتي ربما في السفر إلى كلِّ مكان تمنيت أن أسافر له ولم أفعل، وسأقتني يختًا فريدًا فارهًا كالأثرياء، وربما..

قاطع تفكيري صوت مسعد وهو يناديني من خلفي:

- أستاذ جبير إلى أين؟

الصفحة تنتظرك.

اللعنة على هذه الصفحة واللعنة على جميع الصفحات التي قمتُ بالكتابة فيها، ولم أجنِ من ورائها سوى القليل من المال، ليت مسعد يغرب عن وجهي الآن، فأنا ينتظرني طريق حافل بالمجد والنجاح والثروة، خرجت رغمًا عني من دوامة التفكير اللذيذة هذه ورددتُ على مسعد:

- دقائق فقط وسأعود للمكتب، فأنا مشغول قليلًا في التفكير في أمرٍ ما.

رجع مسعد ودخل مبنى الجريدة، وعدت خلفه إلى مكتبي مجددًا، وجلستُ فيه أفكر فيما أنا فيه حتى انتهى يوم عملنا كله، فأعدتُ أغراضي إلى حقيبتي وحرصتُ على أخذي لعددٍ كافٍ من الأوراق والأقلام وكذلك المذكرات الصغيرة ذات اللون الأصفر، كنتُ كطالب يقوم بالتحضير لمحاضرته الجامعية أو كشاعر يستعد لندوة مهمة؛ لأنه يجب أن يكونَ كلّ شيء متوافرًا معي، فلا أريد أن يوقفني أيّ شيء عن استغلال فرصتي هذه، ولا أريد أن يعطلني أيّ شخص عن بلوغ مقصدي الذي رأيته وأصبح بلوغه قريبًا من يدي.

حملتُ حقيبتي التي أعددتها جيدًا، وخرجتُ من مكتبي، وركبتُ سيارتي، وعدتُ إلى منزلي، بدلتُ ملابس عملي بملابس نومي، ولكني لم أستطع أن أنامَ مطلقًا ليلتها

بسبب تفكيري فيما سأناله قريبًا بعد هذا اللقاء في الغد؛ فجلستُ أفكر تارة وأعدُّ أغراضي تارة وأكتب أسئلتي التي سأوجهها إليه تارة أخرى، وكنتُ أتخيلُ ما هو قادم عليَّ، فتخيلتُ نفسي أنني القاتل الذي ارتكبَ كلَّ هذه الجرائم الشنيعة المُرعبة التي شهدناها وقمتُ بسؤال نفسي كل سؤال كتبته وأجبتُ على هذه الأسئلة، وأنا أتخيلُ شكله، وعمره، وهيئته، وحتى دوافعه التي دفعته لإجرام كل هذه الجرائم غير العادية.

كنتُ غاية في التركيز في تفكيري ومندمجًا في تخيلاتي لدرجة أنني فوجئت بضوءٍ صباح اليوم التالي قد ظهر فجأة خارج النافذة، فقمتُ بارتداء ملابسي وحملتُ حقيبتي وأرسلتُ رسالةً نصيَّةً إلى مسعد أخبرته فيها أنني سأتغيب اليوم عن دوامي بالجريدة بداعي المرض المفاجئ وعدم مقدرتي على الحركة منذ أن قمتُ من نومي.

ارتديتُ حذائي ورفعتُ حقيبتي على كتفي، وخرجتُ من منزلي وسرتُ حتى سيارتي، نظرتُ في كلِّ مكانٍ حولي وتأكدتُ من عدمِ وجود أية رقابة أمنية حولي؛ حتى لا تتبعني وتفسدُ مخططي الأهم، لم يعد أيّ منهم يترصدني فركبتُ سيارتي وانطلقت إلى المنطقة الموجود فيها المبني الذي حدده لي قبل موعده بساعة كاملة.

داخلي، الترقب وعدم المقدرة على التفكير الواضح يصلان إلى أقصى مداهما، والأسئلة التي غابت عن ذهني أمس،

تتراقص أمامي الآن، فماذا يريده مني حقًّا هذا القاتل؟

يا لحظي السيئ!

كنت جالسًا في سيارتي الواقفة أمام هذا المبنى القديم المهجور، نظرتُ إلى شاشة هاتفي فرأيتُ الساعة قد وصلت إلى الثانية عشرة وخمسين دقيقة ظهرًا، وكنتُ قد وصلت أمام المبنى منذ مدة، فترجلتُ من سيارتي ودخلت المبنى المحدد وصعدتُ السُّلم ووقفت بالتحديد عند الطابق الأول، كنتُ أصعد سلالم هذا المبنى القديمة التي غطاها الغبار بكلِّ بطء وأنا أتأملُ تفاصيلها المهجورة، وكما أرادَ هو صعدتُ للطابق الثالث في تمام الساعة الواحدة، وأنا أنوي أن أرفعَ الستار عن هذا القاتل ذي الطَبْع الذي يصعُب فَهمُه، فهو في الحقيقة القاتل الأكثر إثارة للجدل والخوف وسط كل القتلة الذين مررت بهم في حياتي.

الساعة قد وصلت للواحدة تمامًا، وها أنا في الطابق الثالث تحديدًا، وجدتُ بابًا قديمًا فمددتُ يدي لأفتحه، كان مكتوبًا عليه بخطِ اليد عبارات عديدة مثل: «**الدنيا دوَّارة**»، و«**الحياة يوم لكَ ويوم عليكَ**»، وكان الطابق كلّه ممتلئًا بأوراق الصحف المتناثرة، وكانت أخباري التي كتبتها طوال السنوات الماضية معلقة على كلِّ الحوائط، حتى الأخبار التي كنتُ قد كتبتها مؤخرًا، وكأنَّ هذا القاتل يدرس أعمالي أو يتخذها كأعمالٍ فنيَّة يُزيِّن بها جدران هذا الدور الثالث.

بدأ القلق يسري في جسمي، واحتلت الحيرة رأسي، وبدأت تراودني أسئلةٌ كثيرة حول ما أنا فيه، فلماذا اختارني أنا هذا القاتل المحترف دون أن يختار أيّ شخص آخر من الناس؟ ولماذا يحتفظ بمقالاتي كلَّها بهذا الشكل الجنوني؟ ولماذا كان يكلمني أنا شخصيًّا ولا أحد سواي؟ أمِن الممكن أن يكون هذا القاتل هو أحد المعجبين بي؟ أيكون معجبًا بأعمالي لذا قد قرر منحي هذا الشرف العظيم؟ شرف مقابلته الحصرية. أم تراه يحضِّر لي مفاجأة صادمة من العيار الثقيل؟

جلستُ في كرسي خشبي وجدته وسط الطابق الذي اتفقنا على أن نتقابل فيه، وما هي إلَّا دقائق مرت حتى فُتح الباب، تلقائيًّا وجهتُ نظري له ووجهت كل حواسي -أيضًا- إليه، كنتُ أنظرُ له في صمت نظرة المترقب لأمرٍ ما لا يعرفه.

كان شابًا يبدو أنه في الثامنة والعشرين أو في الثلاثين من عمره، وجهه دائري، كان ينظر لي بعينيه شديدتي السواد وبمقلتيه الواسعتين مثل مقلتي قِطة، أنفه كان متوسط الحجم، ويملكُ شاربًا خفيفًا، ولم يُسرِّح شعره الطويل بشكل جيد.

بدأ هو بالنظر لي لدقائق عدة وهو مبتسم وكأنه يتأملني، فبادلته الابتسام دون أن أقتربَ منه أو حتى أُلقي السلام عليه، ولكن فجأة تلاشت هذه التعابير من وجهه، وتجهم

كمن تعرَّض للسُّخرية أو للسباب، وذهب للجلوس على شرفة الطابق العالية.

لم يكن خائفًا قَط من أن يسقطَ لأسفل، كانت أية ريح قوية يمكنها أن تسقطه أرضًا، لكنه لم يعتريه الخوف مع كل هذا الارتفاع، كان واضحًا عليه أنَّه قد تعوَّد على هذه الجَلسة.

أخرج سيجارة من جيبه وأشعلها وبدأ في تدخينها، كان يسحب دخانها ويكتمه قليلًا داخل صدره ثم يقوم بنفخه في الهواء إلى الأسفل نحو الأرض، وقد أثار انتباهي أنه يمسح العرق المتصبب من جبينه بين الفينة والأخرى.

- أستاذ جبير، أعتقد أنكَ قد شاهدتَ ما عُلق على الحوائط.

- وهذا مدعاة للفخر بكلِّ صراحة.

قلتها وأنا أنتظر أن يبدأ في حديثه المهم الذي أنتظره، فأنا كلّي شوق إلى أن أستمع إلى ما سيقوم بإخباري به بكلِّ تفاصيله.

- يبدو أنكَ مستعجل، وتريدُ مني أن أبدأ، لا تخف سأخبركَ بكل شيء.

كل شيء.

ولكن عذرًا لأنني لم أقدِّم لكَ واجب الضيافة، فقد

استيقظتُ متأخرًا وأتيتُ إلى هنا بسرعة؛ حتى لا أتأخرَ عليكَ.

- لا عليكَ، لقد تناولتُ فَطوري وأشعرُ بالاكتفاء، ولا أظنُ أنني سأشعر بالعطش، ستبلُّ أنتَ ريقي بما لديكَ من معلومات وأسرار.

ضحكنا سويًا، وقال:

- لنبدأ إذن.

قالها، ثم أتى بكرسيّ خشبيّ آخر كان في الطابق، ووضعه بجواري وجلس بجانبي، وأكمل:

- قبل أنْ أتحدثَ لكَ، هل من الممكن أن تُخرج كل ما لديكَ في حقيبتكَ هذه؛ حتى أتأكدَ مِن أنَّكَ لا تحمل أية أداة للتسجيل أو ما شابها.

أفرغتُ حقيبتي من الأوراق والأقلام أمامه، وقمتُ بإخراج هاتفي ومحفظتي، ووضعتهما بجانبه، في البداية لم يكن راضيًا أو مرتاحًا من رؤية هاتفي معي، لكني حاولت تغيير الموضوع سريعًا بتوجيه سؤالي له:

- لكنكَ ستعترفُ هنا في هذه الأوراق، وستمضي عليها.

- لكَ هذا، لكنني لا أريدُ لأحدٍ أن يستمعَ لبكائي وحزني، لا أريدُ أن يشمتَ أحدٌ في ضعفي، فالكلمات أحيانًا تكون خاليةً من هذه الأحاسيس، وأنتَ صحافي

مبدع تستطيع أن تتركَ للناسِ صورة مناسبة عني وتخبرهم بأنني قد سلَّمت نفسي وأنا بطل لم يهز لي جفن.

اقتنعت بما قاله، ووعدته بتنفيذه، فقال:

- هيَّا بنا نبدأ.

قالها، وهو ينظر لي كمن يستذكر أمرًا ما حدث له معي، لو كنتُ سأكتبُ -الآن- أول فقرة في اعترافات هذا الرجل فربما كانت ستكون هذه الفقرة هي:

«من المستحيل أن نعرف المجرمين أو نحددهم من أشكالهم فقط، فهذا الشاب إن رأيته في مكان ما دون سابق معرفة بما يفعله، ربما لن أتصور ولو بنسبة واحد في المئة أنَّه قد يقدر على إيذاء نملة، حتى ملامحه تُعطيك انطباعًا عنه بأنَّه شاب خلوق مثقف مقبل على الحياة، وليس قاتلًا متسلسلًا مستعد لارتكاب أبشع الجرائم دون أدنى رحمة أو عطف».

***

الورقةُ الأولى

كل ما عشته كان عنوانًا للبشاعة، فقد حملتُ اسمًا مُعاكسًا تمامًا لقَدري وحياتي ولطريقة عيشي، تخيل أن اسمي هو (جمال)، يا للتناقض العجيب الساخر!

ولدتُ بعد منتصف الثمانينيات لأبٍ لا وقت لديه سوى لبذر الأطفال في أرحام أمهاتهم ثم هجرهم جميعًا إلى عمله وحياته التي لم يسمح لعائلته بأن تكون جزءًا منها، ولأم عانت من هذا الإهمال العاطفي؛ فتحولت إلى أم عاجزة عن تحمل مسؤولية أطفالها الثلاثة، تحولت إلى صحراء جدباء ليس بها أيّ شيء لتعطيه أو لتمنحه.

أظنُّ أنه إن كان لكل كلمة عكس، فإنَّ كلمة (صحراء) هي عكس كلمة امرأة، كما أن عكس حياتي هو اسمي.

كنَّا ثلاثة أشقاء، أنا وأخي الأكبر مني وأختنا التي تصغرني بعامين اثنين، فقد كنتُ الابن الأوسط، قرأتُ منذ وقتٍ بعيد عن عقدة الابن الأوسط، ولكنها ليست عقدة نفسية قدر أنها استجابة طبيعيَّة لطريقة معاملة الأهل، وهي التي قد تحوِّله إلى إنسان حزين، إنسان بائس، ومنتقص منه، ومجرم

استمر الظل المسمى (أبي) في الوجود على جدار حياتي حتى بلوغي سن السادسة، ثم اختفى عقب زواجه الثاني الذي تسبب في طلب أمي لطلاقها منه، لم أفتقده، لكن

المكان المخصص للأب حتى لو كان ميتًا بقى لديّ فارغًا تمامًا، بينما ملأت أمي مكانه بالفوضى والقسوة والتمييز بيني وبين شقيقي الأكبر وشقيقتي الصغرى.

أختي هي البنت الصغرى المحبوبة، وأخي هو الابن الكبير الذي كانت أمي تُعلِّق عليه أمنياتها وآمالها، وضِعتُ أنا -تمامًا- بين هذا وهذه وحاولتُ البحث عمن يجدني؛ فبحثت عن والدي لكني فشِلتُ.

حتى مصروف المنزل كان يُرسله إلينا عبر البريد أو كان يسلمه باليد إلى أحد أشقاء أمي، كنت أحلُمُ بأبٍ كالآباء الذين كنّا ندرس عنهم في المدرسة، أب مثالي يضحي بسعادته وبعمره بأكمله من أجلنا، أب عطوف ومتفهم، وموجود دائمًا لمساندتنا.

حلمت بأبٍ لا يشبه الأب الذي تفننت أمي في وصف ما كان عليه من سوء وقسوة لنا، فقد قالت لنا وكأنها تعلمنا إنَّه كان مهملًا لنا ولها، وكان يتهرب من مسؤولياته، فقد كان أنانيًّا، لا يحب إلَّا نفسه.

وهو لم يثبت العكس، وكأنَّه وُجد ليكونَ أبًا ضالًا ومؤذيًا لأقرب الناس إليه، ولأبنائه. في بعض الأحيان تأكدتُ أنَّني كنتُ على صواب، وفي أحيانٍ أخرى عرفتُ أنني مخطئ حين رأيت في الواقع آباء أصدقائي وأمهاتهم، لقد عاش الجميع حولي ينعمون بالحب والدلال من والديهم إلَّا أنا، لقد عاشوا كلهم كعائلة إلَّا أنا؛ فقد

عشتُ بعيدًا وحيدًا قبيحًا كحلزون داخل قوقعته.

أمَّا أمي فقد وزَّعت اهتمامها بين أخي الأكبر؛ لأنَّه بِكرها وبين أختي الصغرى؛ لأنَّها آخر العنقود، كانت لا ترفض لهما طلبًا يطلبانه، ورغباتهما كلها مجابة وتحضر، أمَّا أنا فكنتُ أوسطهم المظلوم دائمًا وأبدًا.

أشعر أنني زائر لهذه العائلة أو أنني قد أتيتُ بالخطأ إلى هذه الأسرة التي لا يربطني بها شيء مطلقًا، لطالما بحثت عن السبب، بل إنني بكلِّ صراحة سألت أمي مرات عديدة عن جفائها وبرودة مشاعرها نحوي، ولكنها كانت تأبى أن تجيبَ عليَّ وكانت تتهمني بالحساسية الزائدة أو المفرطة، لكنني كنتُ عندما أنظر إلى وجهي في المرآة أعذرها بعض الشيء؛ لأنَّ وجهي نسخة من وجه والدي وبالتالي فقد كانت ترى هذا الزوج الخائن في وجهي أنا كل لحظة تراني فيها.

كانت مشاعر الحب تأتيني فقط من أختي، الأخت نعمة في هذا العالم، وهي منبع الحب والاهتمام ولا أبالغ إن قلتُ إنَّها أحيانًا تعوض مكانة الأم، خاصةً إذا كانت مثل أمي.

لقد كانت طفولة صعبة يا جبير، مرت عليَّ متعبة وبطيئة للغاية، لقد كنتُ على عكس أقراني، أنتظرُ صباح كل يوم للذهاب إلى المدرسة، حتى أرى مَن يراني ويشعر بي ويبادلني الاهتمام وهم أصدقائي، وإن حلَّت العطلة

الأسبوعيَّة، كنتُ أشعر أنني كمن يتم تحويله إلى السجن، كنتُ أجلس في صالة منزلنا أمام التلفاز، لا أسمع سوى تأفف أمي مني، ولا يهنأ لها بال حتى أغادر الصالة بأمرٍ منها، والغريب أنَّها كانت لا تفعل الشيء نفسه مع أخي الذي كان يظل موجودًا في المكان نفسه، بل كانت تطبطب عليه وتدعوه لأخذ قسط من الراحة بعد يومه الشاق في الدراسة.

هل يعقل أن تكون هناك أم تكره ابنها؟ أم أنا يُخَيَّلُ إليَّ هذا فقط؟

سيتصور البعض أنني أبالغ، ولكن يمكنكم أن تطالعوا أخبار الجرائم والجنايات فستجدوا أن جزءًا كبيرًا منها له علاقة بوجود الوالدين أو أحدهما، أعني سوء العلاقة بين الأبناء ووالديهم قد تؤدي في كثيرٍ من الأحيان إلى ارتكاب أبشع الجرائم، ربما لم أصل إلى هذه الدرجة مع أمي لكنها استطاعت هي وأبي أن يصنعا مني مشروعًا لمجرم مستعد أن يقتل في أية لحظة ودون أن يشعر بتأنيب ضميره، لأنه قد سُلب الحب والرحمة من أقرب المقربين منه، فكيف سيشعر بهما نحو الآخرين!

يبدو أنني استرسلت كثيرًا في كلامي، المهم أنني واصلت مشواري الدراسي بنجاح دون أية مشاكل أو عراقيل تواجهني، حتى وصلت إلى الثانوية العامة واستطعت أن أصبحَ في الصف نفسه مع أخي الذي

يكبرني بثلاثة أعوام؛ وهذا لأنه وبسبب الدلال المفرط المُغدَق عليه من أمي كان يرسب كل عام.

طبعًا أمي لم تدخر جَهدًا وراحت تستقدم له المدرسين الخصوصيين وتدفع لهم بسخاء، فقد كان المهم عندها أن ينجح ولا يصبح مسخرة بين زملائه ويصغر في أعين الجميع وعلى وجه الخصوص عيني أنا، وكأني عدو لهما، لأمي ولأخي!

الوحيدة التي كانت ترثي لحالي هي أختي التي نبَّهت أمي لأكثر من مرة لضرورة أن تعاملني مثل معاملتها لأخي ولضرورة مساعدتي في الدراسة كما كانت تفعل معه، فكانت تجيب عليها ببرودة أعصاب:

- هو متفوق بطبعه ولا خوف عليه مطلقًا، لطالما حصد أعلى الرتب دون مساعدتي أو مساعدة أحد، أخوه أولى بالمساعدة والاهتمام فهذه قد تكون آخر فرصة له في المدرسة، فقد يُعرضه رسوبه للطرد منها.

لم يكن بيد أختي شيئًا لتفعله أمام جبروت أمي؛ ولهذا اكتفت بالمراقبة من بعيد، وبين الحين والآخر كانت تترك لي رسالةً لطيفة تدعمني بها وتشجعني فيها، ما زلت أحتفظ بهذه الرسائل حتى يومي هذا، فقد كانت هي الرسائل الوحيدة التي عبَّر لي فيها أحدهم عن مشاعره الصادقة نحوي.

نجحنا سويًا، أنا وهو، تفوقت أنا في النسبة بفارق كبير وملحوظ، يومها ذهبت إلى مقر عمل أبي لأخبره بأنني قد نجحت وتفوقت أيضًا، لكن زملاؤه أخبروني أنه قد سافر وبأنهم سيبلغونه عند عودته بخبر نجاحي وسيعطونه رقم هاتفي كي يتصل بي.

وأخبروني أنه سيعود بَعد أيام قليلة، لكنني انتظرت لأكثر من شهرين، ولم يتصل بي وبصراحة كنت أنتظر اتصاله، قبل أن تنتهي حياتي وأسكن جدران السجن حيث سيكون اللقاء صعبًا، صعبًا جدًا، لا يُحتمل لأيٍّ منَّا.

وحين لم يتصل أبي قررت أنا أن أتصل به، قررت أن أمنحه ولدًا شريكًا له في كلِّ شيء كما يفعل الآباء مع الأبناء، لكنه تجاهل كل أتصالاتي وكأنه يخبرني لا يوجد لك بداخلي متسع.

اكتب يا جبير، ولا تحدِّق إليَّ هكذا.

لا تُدهش الآن.

اكتب فقط.

***

الورقة الثانية

الجامعة كانت بالنسبة لي عالم آخر ومختلف -تمامًا- عن عالم المدرسة، في عالمها هذا وجدتُ كل الأنماط من الشباب والفتيات، فهناك يجب أن تغيِّر طبائعك، فلا يجب أن تعامل الشاب مثل الفتاة، و-أيضًا- لا يجب أن تستخدم المفردات ذاتها مع الجميع، كل شيء مختلف، حتى التعامل مع الأساتذة.

لكن كان هناك أمرٌ يميز الجامعة بالنسبة لي عن غيرها، وهو إمكانية الجلوس فيها لمدة طويلة خلال يومي على عكس المدرسة التي كانت تضطرني لمغادرتها كل يوم في توقيت معين، وكذلك كان في إمكاني حتى الحضور في إجازة الصيف وفي الدراسة.

لن أبالغ إن قلت إنني كنت أعتبر الجامعة هي جنتي؛ لأنها أبعدتني عن أمي التي لا تطيقني وعن أخي الذي ازداد عدوانية ضدي بعد قبولي بالجامعة بينما هو تحوَّل إلى إحدى الكليات المتواضعة والبعيدة، ولم يُفلح فيها -أيضًا- حيث طُرد منها بسبب رسوبه المتكرر وجلس في المنزل لتقوم أمي بهوايتها المعتادة وهي أن تصرف عليه، بينما أنا الطالب الجامعي الذي يحتاج لكثيرٍ من المصاريف كنتُ أستجدي منها المساعدة، وحينًا أتلقاها وأحيانًا لا، فاضطررت للعمل في المساءِ نادلًا في أحد المطاعم؛ كي أغطي مصاريفي الشخصية والدِّراسية.

في هذه المرحلة الحرجة من العمر، فترة الشباب التي تكون في ذروتها، من الطبيعي أن ينجذب قلبك للجنس الآخر، وكانت الفتاة التي ارتاح لها قلبي اسمها خلود، هذه الفتاة الجامعية الخجولة، التي تتوارى -دائمًا- عن الأنظار أيضًا، مثلي أنا تمامًا.

كانت تنزوي لتدرس وحيدة في إحدى مكتبات الجامعة، فحاولتُ بشتى الطرق أن يجمعنا أيّ حوار لكن كل محاولاتي أمامها كانت دون جدوى، حتى اضطررت ذات يوم للجوء إلى أحد أصدقائي في الجامعة وكان اسمه هيثم، الصديق الوحيد الذي أستطيع أن أتحدث معه في أمر خلود دون خجل؛ لأن معرفتي به كانت منذ أيام الدراسة في المدرسة، وقد عشنا سويًّا الكثير من المواقف الصعبة والكثير من المصائب كذلك، وكتمنا لبعضنا العديد من الأسرار، أخبرتُ هيثم عن انجذابي تجاه خلود وعلى إحساسي بها؛ فقال لي إنَّ لديه طريقة فعَّالة يمكنني فعلها حتى يميل قلبها لي، فسألته عن هذه الطريقة، فقال لي:

- بالرسائل، بالرسائل يا جمال، فهي قارئة نهمة ومكانها المفضل هو المكتبة.

أوضحتُ له عدم تمكني من إيصال هذه الرسائل لها، فلو كان الأمر بهذه السهولة لكنتُ حدثتها أنا مباشرة، فأخبرني أنه سيتكفلُ بهذه المهمة من باب الصداقة

الوطيدة التي تجمعه بي.

«**لقد أنقذني هيثم**»، هذا ما قلته لنفسي وقتها، فأنا لم أكن أملكُ الجرأة لأقترب منها حتى وأعطيها رسالتي، و-أيضًا- كنتُ أخاف من ردة فعلها، كأن ترمي هي الرسالة في وجهي مثلًا، أو تصرفني بصوت مرتفع فأكون أضحوكة للطلاب في الجامعة؛ لهذا تعمدت أن أكتب الحرف الأول من اسمي فقط (ج) آخر رسالتي، حتى إذا اشتكت من هذه الرسالة أو أبدت انزعاجها منها أنفي الأمر جملة وتفصيلًا، وأنساه.

كتبتُ أول رسالة لخلود وأوصلها لها هيثم كما وعدني، وأخبرني أنها استغربت الأمر لكنها وضعت الرسالة داخل كتابها وأخذتها، وبَعد ثلاثة أيام كررتُ هذه الكتابة لها وأرسلها هو، كتبتُ رسالة ثانية لخلود وذهب هيثم ليوصلها لها، وإذ به يعود إليَّ ومعه رسالة، كانت منها هي، مِن خلود، عبَّرت فيها عن مدى سعادتها بوجود أشخاص يؤمنون بالحب المقدس الطاهر في هذه الأيام.

قرأتُ رسالتها فشعرت بأنها سعيدة ولا مانع لديها من مبادلتي المشاعر نفسها، وقد وضعت في نهاية رسالتها حرف (هـ) وكأنه إمضاء منها كما فعلتُ أنا، لم أفهم ما مقصدها وقتها، لكننا تواصلنا معًا عبر رسائلنا اليوميَّة، فقد كنَّا نكتبُ رسائلنا بشكلٍ يوميّ تقريبًا.

لم يقصر صديقي هيثم معي قَط؛ بل إنه طلب مني أن

أتجرأ هذه المرة وأكشف لها عن نفسي بدلًا من الرسائل التي لم تعد لها فائدة، فما دامت تبادلني المشاعر نفسها، لم لا أتعرف عليها بواقعيَّة أكثر؟ لكنني أجَّلتُ هذه الفكرة فلم أكن على استعداد للظهور أمام خلود على الأقل في ذلك التوقيت.

أسوأ شيء هو أن تكتشف أنَّك في منتهى الغباء والسذاجة، وخاصة بَعد فوات الأوان، ففجأة وبدون سابق إنذار بدأ هيثم يتهربُ مني، فلم يعد يرد على مكالماتي وإذا ردَّ عليَّ كان يردُّ باقتضابٍ شديدٍ، وأخبرني في آخر مكالمة لنا أنه عليَّ إنهاء موضوع المراسلات التي أكتبها لخلود وطلب مني عدم تَكرار التجربة، فقد تُحدِث هذه المراسلات ما لا تُحمد عقباه لها ولي، هكذا قال لي الأمر دون أن يُقدِّم لي تفسيرًا أو توضيحًا.

حاولتُ جاهدًا أن أعرف مقصده فلم يريحني ولم يخبرني ولم أفهم وحدي، فأصابني الأرق بسبب كثرة التفكير في خلود وانقطاع رسائلنا وبسبب انشغالي في تحليل ما يحدث، خمنتُ وافترضتُ أن هذه الرسائل قد وقعتُ في يد والد خلود مثلًا أو في يد أحد إخوتها مثلًا فغضب أهلها مما نفعله وقرروا أن يشتكونني في الجامعة فأسقط أنا في امتحاناتي هذا العام وفي عين الجميع لاسيما أمي وأخي وأختي، ولن يُشار لي بالبنان بل سأصبح حديث الناس.

مجرد التفكير في هذا الأمر يُشعرني بالخوف والارتباك؛

لذا قررت أن تكون هناك هدنة بيني وبينهما لا أراسل فيها خلود ولا أكلم فيها هيثم، ريثما تهدأ الأمور.

بَعد مرور شهر تقريبًا جمعتني الصدفة بزميلةٍ لي تدعى هَيا، فقد كلفنا أحد أستاذتنا في القسم بتنفيذ مشروع ثنائي بيني وبين هَيا، وهو ما اقتضى أن نقضي معًا وقتًا طويلًا في من أجل البحث والتدوين والتنفيذ، وفي إحدى المرات خرج حديثي مع هَيا عن سياقه الدراسي وبدأنا نتحدثُ عن أمورِنا الشخصية، كانت هَيا شابة منفتحة ولا تبالي بالحديث مع الشباب في خصوصياتهم، فقد سألتني عن بُرجي ولوني المفضل والمطرب الذي أحب أن أستمع إليه وهكذا، ولأنَّ الحديث يجر بعضه وجدتني ودون أن أشعر أسألها عن خلود، فقلت لها:

- بالمناسبة يا هَيا زميلتنا خلود لم أعد أراها منذ مدة، مع أنها كانت لا تفارق المكتبة، فلم اختفت؟

- آه تقصد خلود التي تعشق الوحدة والعزلة، أخبرتني ابنة خالتها أنَّها قد خُطبت مؤخرًا لطالب يدرس معنا، أظنكَ تعرفه، اسمه هيثم.

- ماذا؟

هيثم؟

هيثم مَن!

كانت الصدمة قوية جدًّا عليَّ إلى درجة أنها أفقدتني

توازني واتزاني معًا، ولأول مرة أشعر بالتهور والقهر، نعم لقد كنتُ مستعدًا لفعلِ أيّ شيء وقتها كي أفهم ما جرى، أمسكت بيد هَيا وضغطت عليها وأنا أطلب منها رقم خلود بترجي، تعجبت الفتاة من تصرفي المفاجئ معها ورفضت، ولكن بعد إلحاح مني بيَّنتُ لها من خلاله أنني أحمل أخبارًا لها وأسرارًا خطيرة عن هيثم، فأنا أعرف الناس به.

نجحت خُطتي وأحضرت لي هَيا رقم خلود عن طريق ابنة خالتها، طلبتُ رقمها من هاتفي، واتصلت بخلود أخيرًا، بدت لي الرنات طويلة بينما كان قلبي يدقُ بقوةٍ، حتى أجابت من الطرف الآخر:

- أهلًا، مَن معي؟

- معكِ جمال صديق هيثم.

- مرحبًا بكَ أخ جمال، أظنني أعرفكَ مِن خلال حديث هيثم عنكَ.

- لو كنتِ تعرفينني حقًّا لعرفتِ أنني أنا مَن كان يُخبِّر لكِ هذه الرسائل.

- فعلًا أعلم هذا، خطّكَ الجميل زاد كلمات هيثم جمالًا وإحساسًا، أشكركَ.

شعرت بالغليان وقتها وبأن داخلي براكين تود أن تنفجر، كيف انقلبت الأدوار وأصبح هيثم هو العاشق وأنا

الخطاط الذي يكتب له ما يشعر به فقط! فصرختُ بأعلى صوتي فيها:

- بل أنا يا خلود صاحب الخط وصاحب الكلمات وصاحب المشاعر والإحساس، ثم ألم تنتبهي للحرف الذي كنت أوقِّع به على سائلي لكِ، حرف الجيم وهو أول حرف من اسمي، فما علاقة هيثم بالأمر!

- من فضلكَ أخ جمال أخفض صوتكَ، أجل، صحيح هذا، فقد أخبرني هيثم أنَّ حرف الجيم يعني: (جئتُ من أجلكِ)، وكنتُ أردُّ عليه موقِّعة بحرف الهاء أي ها أنا أنتظركَ، أرجوكَ سأقفل الخط لأن زوجي هيثم غيور جدًّا، ولا يتقبل أيّ اتصال من الغرباء.

- غريب؟ بعد أن كنتُ أنا الحبيب المفترض صرتُ غريبًا!

أي هذيان هذا؟ أكاد أجن، وما هذه السرعة التي تزوجا بها! أكانت رسائلي سحرية لهذه الدرجة!

كنتُ أحدث نفسي كالمجنون بينما كان الخط قد أقفل في وجهي من الطرف الآخر، بعد هذه الخيبة كرهت كل من حولي، ولم أعد أثق في أحد، فالكل صدّر لي الألم والحزن؛ وكرهت الجامعة فبعد أن كانت أفضل ملجأ لي تحولت إلى مكان بغيض أريد الهرب منه ومن ذكرياته وصوره؛ لأنها تذكرني بخلود وربما تذكرني بخيبتي الكبيرة.

خيبتي في الحب كانت أقسى خيباتي كلّها وأشدها عصفًا بي.

***

الورقةُ الثَّالثة

سنوات الجامعة بدأت مثالية وانتهت بحزن وخيبة وقلب محطم، لا أعرف كيف حصلتُ على الشهادة؟ ربما لأن معظم الأساتذة كانوا يدركون أنني طالب نجيب غدرت به الظروف وجعلته تائهًا عن درب النجاح؛ لهذا كل أستاذ مد يد عونه لي من أجل أن أتجاوز حاجز امتحانات الجامعة، لكن كان هناك حاجز لا أستطيع المرور منه، وهو منزلنا، ما زلت غير قادر على إعالة نفسي، ما زلت أعاني الأمرين من تصرفات أمي وتسلط أخي، أما أختي وسندي فقد أتى نصيبها وتزوجت من أحد أقاربنا.

هذا الأمر لم يُفرحني قط، فهي تزوجت رغمًا عنها، وبقرارٍ من أخي الذي حوَّل حياتها هي الأخرى إلى جحيم، وتعمَّد تقييد حريتها وتأليب أمي ضدها، المسكينة حاولت التواصل معي لأكونَ لها سندًا يدعمها في رفض هذا الزواج، لكنني كنتُ أسبحُ في دوامةِ الحزن والضياع والشتات، لقد خذلتها وهي التي طالما وقفت معي وفي صفي، أخبرتني قبل زواجها بيومين أنها توقعت بأنني سأكون السند والعون لها بعد أن أصبحتُ شابًا ناضجًا، لكنني كما كنتُ منذ صغري ضعيفًا ومهزوزًا، ذهبت والدموع في عينيها، وهو الأمر الذي رأيته أقسى حتى مما حدث لي، لقد خذلتُ مَن كانت لي السند، لقد خذلتُ أختي وهي النقطة المضيئة الوحيدة في حياتي، ما أقسى أن

تترك بقلبِ من يُحبكَ غصة! وما أقسى أن تتحمل وحدكَ المسؤولية دون غيركَ!

لقد بقيت أختي على تواصل مع أمي فقط، لم تكن تكلمني أو تكلم أخي، وهذا يعني أن تسلط الأخ الأكبر يقابله خذلان الأصغر منه، كان موقف أختي هو القطرة التي أفاضت الكأس؛ فكرهت منزلنا وخرجت كل صباح لأبحثَ عن مكانٍ آخر يحتضنني طوال اليوم، مقهى، بحر، أو حتى التَّسكع في المجمعات التجارية، المهم ألَّا أعود إلَّا في وقتٍ متأخر حتى أجد أمي قد نامت، أمَّا أخي فكنتُ مطمئناً إلى أنَّه لا يعود قبل أن تظهر خيوط الفجر الأولى، وهكذا ارتحت من نظرات السخرية التي يُطلقها تجاهي.

لكن الأمور لا تسير دائمًا في طريق واحد، فهناك شعرة تقصم ظهر البعير، وأنا كان على ظهري أطنان من الهموم، وكانت كلمة تكفي لأن تُخرج الوحش الذي بداخلي، يومها كنت أهمّ بالخروج إلى أحد المقاهي لأقضي يومي كالعادة، وإذ بي أسمع أخي يتحدث عني مع أمي، ولما رآني رفع من صوته متحديًا لي دون أن أحدثه حتى:

- لم أر أفشل من ابنكِ هذا، الفشل ليس في الدراسة بل في الحياة كلها، وهذا نموذج حي لإنسان فاشل لفظته الحياة، يقضي جل وقته في المقهى دون هدف أو غاية، يعيش عالة علينا كما لو كان حيوانًا، بل هو أقل فائدة من الحيوان نفسه، هو مستغل يمتص خيرنا.

كانت أمي تهز رأسها موافقة على كلامه الذي يهذي به أمامها، فلم أتمالك نفسي وقفزت عليه مثل وحش ضاري ونزلت عليه لكمًا وصفعًا، وأخرجت يومها كل ما كان في داخلي من غلٍّ وحقدٍ عليه طوال كل السنوات الماضية، ولم ينقذه مني إلَّا جيراننا الذين تدخلوا بعد طلب أمي النجدة مما أفعله بأخي، كانت تصرخ بأعلى صوتها:

- المجنون، سوف يقتل ابني.

وكأن هذا المجنون لم يكن ابنها -أيضًا- ربما لم ترني سوى صورة مكررة لخذلانها هي الأخرى. صورة لزوجها الذي وثقت به حد الإنجاب منه وخانها بلا أيّ رادع من ضميره، لم تكتفِ أمي بالاطمئنان على سلامة ابنها المدلل؛ بل قصدت قسم الشرطة وقدَّمت بلاغًا ضدي، وصرتُ بين ليلة وضحاها ردّ سجون.

في الصباح التالي أُطلق سراحي بعد تدخل خالي الذي خشى على سمعة عائلتنا، خالي الذي لا أراه إلَّا في المصائب وإن كنتُ لا ألومه فأبي قد تنصل من مسؤوليته نحونا فكيف يتحملها غيره، أمسكني خالي من ذراعي ومشينا في الشارع الرئيسي وبدلًا من أن يستدير نحو منزلنا، غيَّر اتجاه سيرنا نحو ورشة حيث اكترى لي غرفة صغيرة أتقاسمها مع بعض العمال هناك، ولم يكن بقائي هناك مكوثًا ريثما تهدأ الأمور بيني وبين أمي وأخي، بل كان رسالة واضحة مفادها أنه لم يعد لكَ مكانًا بيننا.

لقد طُردتُ بقرارٍ عائلي، نبذت بالإجماع. لم أشعر بالحزن، لم أبكِ ولم أتذمر، بل على العكس -تمامًا- شعرتُ بالراحة والاطمئنان إذ لم يعد يتوجب علي الاتصال بهم أو سماع لومهم وتأنيبهم على مدار يومي، لكن كان عليَّ البحث عن عمل يحفظ ماء وجهي، وقد كانت شروط القبول في عمل مناسب كثيرة وتعجيزية في أغلب الأحيان كشرط وجود سيارة أو خبرات سابقة، وما أتيحت أمامي من أعمال على قلتها لم يكن الراتب فيها يكفي لتنقلاتي وطعامي حتى.

بعد أسبوعين من البحث جمعتني الصدفة في أحد صالونات الحلاقة بأحد أصدقاء الجامعة السابقين واسمه مشاري، مشاري هذا الفتى طويل القامة صاحب الشعر الكثيف واللحية الكثيفة والمحددة، تعانقنا وتبادلنا حديثًا مطولًا وفضلنا أن نُكمله في أحد المقاهي القريبة.

لم أُخفِ على مشاري ما تعرضتُ له من ظلم وجور في المدة الماضية، وصارحته برغبتي في أن أشق طريقي ومستقبلي بنفسي ودون الاستعانة بأحد من أهلي أو الرجوع لهم، فربّت مشاري على كتفي وقال لي بكلِّ ثقة:

- حظُّكَ جميل يا جمال، فأنا لدي وظيفة لكَ راتبها عالي وعمولتها مميزة وبها ميزات عديدة، كنتُ في صدد أن أهديها لأحد أبناء عمومتي، لكن ولأن القدر جمعني بكَ يا جمال، قررتُ أن أهديها لكَ.

في البداية تصورت أنَّ مشاري يكذب علي أو يخدعني، لكنَّ علامات الثراء التي كانت واضحة عليه زادت من مصداقيته عندي، وعندما سألته عن نوع العمل الذي سأعمل به أخبرني أنه عمل بسيط وهو الإشراف على مكتب لبيع وتأجير السيارات، ووقت العمل ثماني ساعات مقسمة على ساعات اليوم أستطيع أن أختار ما يحلو لي منها، المهم في هذه الوظيفة هو الأمانة والمصداقية والتي اعتبرهما مشاري أهم من الشهادة الجامعية والخبرة، أخبرني كذلك وقتها أنَّ المكتب يعود لأحد مديريه في العمل؛ حيث يعمل لديه في مجال آخر، وأنه طلب منه أن يأتي برجلٍ ليدير هذا المكتب بعد استقالة مَن كان فيه لدواعي تخصه طلب على إثرها استقالته.

هذا الحلُم الجميل بدا يتحقق لي فعلًا، ولأول مرة بعد سلسلة من الكوابيس والإخفاقات، وجدتُ نفسي أجلسُ على المكتب وتحت إمرتي عامل أسيوي يُدعى شارنوبي، رجل ممتلئ الجسم قليلًا، قصير القامة، أسمر البشرة يرتدي -دائمًا- قمصانه التي تغلب عليها الألوان الغامقة والتي تعكس شخصيته بوضوح، كذلك كان هناك أسطول من السيارات من مختلف الأنواع والتي أخبرني مشاري أنَّ لي الحق في استخدامها متى أردت، ومع كل هذه الامتيازات وجدتُ صاحب المكتب والذي يدعى أبو برهان عكس صفات مشاري؛ فهو رجل قصير ولا يملك أية شعرة في وجهه مما زاد من بشاشته؛ حيث رحَّب

بي ترحيبًا شديدًا ووعدني بالمزيد من العمولات في حال التزامي ونجاحي في العمل لديه.

علمني أبو برهان كيفية تأجير السيارات، وبعدها وقَّعنا العقد معًا، وقَّعتُ عقدَ عملي معه سريعًا قبل أن أقرأ بنوده حتى وأنا أستعد لتحقيق حلمي في الاستقلال، فأهداني راتب شهر مقدمًا وتركني مشاري -هنا- وطلب مني أن أبذل كلَّ جَهدي مع المدير الجديد، وقد أخبرني أنَّ أبو برهان لن يتردد علي إلَّا في نهاية كلّ أسبوع للوقوف على المداخيل والأرباح؛ وهذا لأنه رجل مشغول جدًّا بأعماله المتعددة.

بكل صدق وأمانة، شهر كامل وأنا لم أكن أصدق نفسي قَط، هل أنا في حلُم أم علم! زبائن كثيرون لا يتوقفون، وبعضهم كان يتعامل معي دون مساومة حتى على السعر معتمدًا فقط على سمعة أبو برهان في السوق والتي جعلتني لا أبذل أية مجهودات إضافية في البيع أو التأجير.

الأمر الوحيد الذي كان يؤرقني هو العامل شارنوبي، والذي كان متوترًا -دائمًا- وينظر إليَّ بريبةٍ وخوفٍ بلا مبرر، ورغم كل محاولاتي لأن أجعله يثق بي، ولكن محاولاتي كلّها باءت بالفشل معه، وبكل صراحة لم أفكر قَط في استبداله؛ لأنه في النهاية يقوم بعمله، ولا أريد منه أكثر من هذا.

في أحد الأيام سألني شارنوبي سؤالًا:

- هل تعرف لماذا استقال الذي مَن كان قبلك من هنا؟

فأجبته:

- نعم.

إجابتي هذه كانت مجرد إجابة لإنهاء حواري معه لا أكثر؛ لأنني كنتُ مشغولًا وقتها بِعدِّ محصولي الأسبوعي قبل تسليمه لـ أبو برهان.

ولكن هذا السؤال كان يجب أن أعرف إجابته جيدًا؛ حتى لا تمرُّ الشهور ولا أستطيع أن أتجنب الكارثة التي كانت تقترب مني يومًا بعد يوم.

أتذكر جيدًا هذا اليوم، اليوم الذي تعرضتُ فيه لأكبر صدمة في حياتي وكان اليوم الأكثر تأثيرًا في حياتي أيضًا، عندما حضرتُ في الصباح أمام المكتب وكنتُ أمهد لأفتحه، فوجئت بعناصر من رجال الشرطة وهم يقتحمون المكان، اعتقلوني وفتحوا هم المكتب وصادروا الكثير من الأوراق الموجودة، وتم اقتيادي أنا وشارنوبي إلى أحد مراكز الشرطة؛ حيث تم وضعنا في إحدى الزنزانات المؤقتة تمهيدًا لتحويلنا إلى التحقيق دون أن نعلم ما التهم الموجهة إلينا أو الأسباب التي قادتنا إلى هنا.

أثناء انتظارنا في الزنزانة المؤقتة، قال لي شارنوبي:

- أخبرهم أنني لستُ شريكَكَ في الجريمة.

- عن أية جريمة تتحدث يا شارنوبي؟

قلتها باستغراب واستفهام، لعلّه يعرف شيئًا ويخفيه عني:

- لقد أخبرتني أنَّكَ تعلم مصير مَن سبقك.

- نعم، لقد أخبروني أنَّه ترك العمل لظروفٍ خاصة كان يمرُّ بها.

- بل تركه هاربًا بعد أن اكتشف أن أمورًا خطيرة تحدث في هذا المكتب.

- ولماذا لم تخبرني؟ ولماذا تظل أنتَ في هذا المكان ولم تغادره؟

- أنا مجرد عامل أقوم بإعداد الشاي أو القهوة وأنظف السيارات، فلماذا أترك المكتب؟ ولقد سألتكَ إن كنتَ تعلم هذا، وأنتَ أجبتني بنعم.

بقي عقلي مشغولًا بكلمتيه (أمور وخطيرة) فما الذي قصده هذا الذي سبقني في هذا المكتب؟ لكنني في الوقت ذاته كنت أُهدّئ من نفسي وأطمئنها بأنَّ لديّ كل الأوراق والفواتير التي تثبت أن عملي يقتصر فقط على أمور معينة وليس لي أية اتصالات أخرى مع أبو برهان والذي توقعت أن تكون التهمة موجهة إليه بحجة أنه صاحب المكتب.

بعد نصف ساعة من الانتظار في الزنزانة المؤقتة، مثلتُ

أمام المحقق، والذي سألني عن طبيعة عملي، فأخبرته بكلِّ التفاصيل التي كنت أعملها، فقاطعني وهو يقول لي:

- إذن أنت تعترف بالتوقيع على مبيعات هذه السيارات وتأجيرها. هل لديكَ أوراق تثبت أنكَ تقوم بتسليم هذه المبالغ لـ أبو برهان في نهاية كل أسبوع مثلما ذكرتَ؟

- لم أفكر في هذا الأمر قَط، فالرجل كان يقرأ الفواتير ثم يسألني عن المبلغ ويستلمه باليد ويذهب فقط.

- وهل لديكَ أيّ دليل على هذا، دليل واحد؟

- لا، لكن عملي لم يكن به أية أخطاء، جميع العمليات تمت وفقًا لما ينص عليه القانون، ولا شيء خارج عنه.

ضحك المحقق، وقال لي:

- عن أيّ قانون تتحدث، لقد كان لديكَ سيارات بداخلها أموال مخبأة بعناية وحرص في إحدى زواياها وتباع بأسعار مختلفة عن سعرها الحقيقي محاولة منكم للتهرب من الشبهات القانونية حولها، لكن رجال الأمن لا يمكن أن تستغفلهم أنتَ ولا أمثالكَ بسهولة.

وقفتُ أمامه رغم صدمتي وهلعي، ورددتُ عليه:

- والله إنَّ السيارات كلّها ليست لي، جميعها ملك أبو برهان، وأنا مجرد بائع في مكتبه.

- لكن الأوراق تقول عكس كلامكَ هذا، حتى العقد

الذي بينكَ وبينه يوضح أنكَ المسئول عن كلِّ شيء في هذا المكتب من سيارات ومبيعات، وأن أبو برهان لا تقع على عاتقه أية مسؤولية قانونية ولا يتحملها في حال وجود أية مشكلة تحدث في المكتب، وأنتَ قد قمتَ بالتوقيع والموافقة على هذه البنود في عقدِ عملكَ.

أعترفُ، لقد وقَّعتُ على عقد عملي معه دون أن أقرأ الكثير من الشروط، ليس إهمالًا أو جهلًا مني، لكنني من الفرحة والاستعجال نحو بَدء حياة جديدة خالية من المصائب والأحزان، لكن يبدو أن التسرع في الفرح، والتخلص من الحزن قادني لمصيبة أخرى ستكلفني سنوات من السجن.

- هل لديكَ أقوال أخرى؟

سألني المحقق بينما كنتُ أنا أنظر نحو الأرض أحاول تذكر أيّ شيء قد ينقذني من هذا المأزق، فقلتُ فجأة:

- أريد التواصل مع صديقي مشاري، أرجوكَ، فهو الوحيد الذي لديه ما يُثبت براءتي مما أنا متورط فيه؟

وافق المحقق وسمح لي باستخدام الهاتف الذي كان بجانبه على مكتبه، ومع أول اتصال قام مشاري بالرد، فقلتُ له بسرعة شديدة وتلهف:

- صديقي مشاري أنا في مركز الشرطة، يبدو أن أبو برهان أدخلني في ورطةٍ كبيرة وهو..

أتى ردُّه مُقاطعًا لاندفاعي:

- مَن أنتَ؟

- جمال، أنا جمال يا مشاري.

- أهلًا يا صديق الجامعة، كيف حالكَ يا رجل؟ لم أركَ منذ محاضرات الدكتور عايد، يبدو أن اتصالكَ تقصدُ به شخصًا آخر، أنا مشاري دحام.

- مشاري ماذا تقول! لقد جلسنا وأنتَ أخبرتني عن أبي بـ..

- يا أخي ماذا بكَ، هل أنتَ مجنون أو مُصاب بمرضٍ ما، أنا لستُ مَن تقصد، سأغلق الخط فأنا سألعب "التنس" بعد قليل، سأتواصل معكَ لاحقًا.

أغلق الهاتف في وجهي بعدما قاطعني للمرة الثانية. هنا شعرت أن حياتي تتداعى أمام عيني، لقد كنتُ ضحية لعبة قذرة بين صديق سابق كان ينتقد تصرف هيثم ولكنه كان أسوأ وأخس منه، وبين رجل ادّعى أمامي الصلاح هو أبو برهان بينما يداه قد تعودتا على أخذ الحرام وعلى الظلم والنصب.

وسط ذهولي، كان واضحًا أن المحقق قد فهم أنني ضحية لهما، وأنني الذي -بلا مفر- عليه أن يتحملَ عواقب عدم إدراكه لما يدور حوله، فقال وبصوت واضح حتى أنتبه للحكم الذي سوف يصدره في حقي:

- يحوَّل المتهم جمال إلى النيابة العامة بتهمة غسل الأموال، بينما يُبرأ شارنوبي أكرم ويُخلى سبيله لعدم وجود أية أدلة ضده.

تم اقتيادي نحو الزنزانة مرة ثانية بينما أُخلي سبيل شارنوبي والذي عاد لي مجددًا ليخبرني أنه حاول أن يفهمني خطورة الموقف، لكنني كنتُ كمن يعيش في أحلام اليقظة وسط فوهة بركان.

قضيت معظم وقتي في التنقل بين غرفة التحقيق والزنزانة، لقد فقدت الإحساس وحتى الشعور بكلِّ شيء، لم تعد لي أحلام ولا أهداف ولا طموح، كنت أستمع فقط لأسئلة المحققين وحكايا المساجين، وقد لفتت انتباهي قصة لشاب يُدعى سراج بشرته سمراء وجسمه ممتلئ وتميزه شامة وسط أنفه وضربة واضحة فوق حاجبه الأيسر، عندما سألته عن التهمة الموجهة له، فقال وبكلِّ برود أعصاب ودون اهتمام لمن يستمع حوله:

- أنا قاتل، قتلت صديقي وزوجتي خنقًا.

وسط شعور الذعر الذي انتاب المكان، كنتُ هادئا، أو ربما كنت أريدُ أن أقول له:

«إن سمحت يا سراج، ممكن أن تضع يديك حول رقبتي وتخلصني أنا كذلك مما أنا فيه، خلصني من هذه الحياة».

لكن من الصعب فعل هذا لأنني لا أريد الانتقال من

جحيم إلى جحيم أشد نارًا، كل من في الزنزانة كان واضحًا عليه الخوف من سراج هذا، إلَّا أنا فقط، كنت أتحدثُ معه -دائمًا- وأبادله النكات، وكأن ما فعله هو مجرد مخالفة لقوانين المرور وليس إزهاقًا للأرواح، ودفعني فضولي لسؤاله حول سبب قيامه بهذا التصرف الذي ربما يقوده إلى حبل المشنقة فأجابني:

- كنتُ أبحثُ عن الراحة، فكلاهما كانا سببًا في توتر حياتي وزيادة الضغوطات عليَّ، فالأول أدخلني في مشروع تجاري فاشل قادني للإفلاس، والثانية كانت تُثير المشاكل معي وتبحث -دائمًا- عن الطلاق حتى تهرب من حالة الفقر التي كنتُ أعيشها؛ لهذا قررت أن أقتلهما وارتاح، وبصراحة أنا -الآن- أعيش مرتاحًا جدًّا أكثر من أيِّ وقت مضى.

وعندما سألني هو عن سبب وجودي في السجن أخبرته بقصتي كاملة فقال لي وبكل هدوء:

- علاجكَ هو الانتقام.

ولم يُكمل حديثه؛ فسرعان ما خلد للنوم، وتركني أفكرُ في هذه الكلمة (الانتقام)، لقد قضيتُ عمري وأنا أتقبل الهزائم المتوالية بروح رياضية وبدون أيّ رد فعل يبدرُ مني، وإن كانت هناك ردة فعل مني فهي خجولة للغاية، لقد حان الوقت لتغيير هذا الواقع، وظللتُ أفكرُ في هذا الأمر طوال الشهرين اللذين قضيتهما في هذا السجن الذي

دخلته ظلمًا.

حتى جاء هذا اليوم الذي أخبروني فيه بأنه تم الإفراج عني بكفالة مالية ولكني ما زلت ممنوع من السفر خارج البلاد حتى استكمال التحقيقات، ذهبت إلى هذا المحقق المتعاطف معي لأسأله عن هُوية المرأة أو الرجل الذي دفع لي الكفالة والتي كان مبلغها ليس بالهين أبدًا، فأخبرني المحقق بأنها سيدة لكنه لم يكن يملك أيّة تفاصيل أخرى عنها، لم تحضر في بالي سوى سيدة واحدة، وهي أختي، لأنني أعلم أنها الوحيدة التي سيرق قلبها لما أنا فيه، وفعلًا بعد أيام تأكدت من هذا الأمر، بعدما حاولتُ التواصل معها لكنها اكتفت بإرسال رسالة نصية لي قصيرة قالت فيها:

«قمتُ بما يجب عليَّ أن أفعله من باب الأخوة، لا أريد منكَ مُقابِلًا أو تَواصلًا».

اضطررتُ خلال أول أيامي بعد خروجي من السجن من النوم في الحدائق العامة، قبل أن أستطيعَ أن أقنع أحد مؤجري المنازل القديمة التي يسكن فيها العشرات من العمالة الأسيوية، بأنني سأعمل قريبًا وسأعطيه مبلغًا يضاعف الذي طلبه مني، ولكن عليه أن يصبر قليلًا حتى أتقاضى راتبًا من عمل ما.

في هذا الوقت لم تكن في بالي نية لبداية جديدة، بل كانت نيتي هي تصفية حساباتي القديمة واسترجاع حقوقي

من كلِّ إنسان تسبب لي فيما قد حدث، لم أضع عائلتي ضمن مساعي انتقامي وإن كانت هي السبب الأول في تعاستي، ولكن كان لدي أناس غيرهم يستحقون القتل.

وقررت أن أنتقم منهم تباعًا؛ لهذا بدأت في المراقبة، والتخطيط لهذا الأمر، وكان أول من قررت الفتك بهم هو مَن سرق مني خلود، مَن استغل صداقتي معه وثقتي به ليخطف مني هذا الحلم الجميل.

هيثم، أنتَ ستكون أول من يدفع ثمن نهاياتي.

***

الورقةُ الرَّابعة

على مدار أسبوعين كاملين، كان كل ما أفعله فيهما أنني أراقب هيثم فقط، حفظتُ ساعة خروجه من منزله وساعة دخوله إليه، وعرفتُ متى يذهب إلى مقهاه المُفضَّل للجلوس مع أصدقائه، وعرفتُ متى يخرج برفقة خلود وهي تحمل ابنهما الرضيع.

كان الوقت الأنسب لي هو فجر يوم الجمعة؛ حيث يكون هيثم قد انتهى من سهره الأسبوعي في المقهي وسط أصحابه، فهو يعود متأخرًا من سهر يوم الخميس معهم، وكان يترك سيارته في إحدى ساحات الانتظار الخالية البعيدة عن المقهى؛ حتى يخرج على الطريق الرئيسي مباشرة وبسرعة.

في هذا الفجر، كنت أنا أجلس بجانب سيارته أنتظر فقط صوت إنذارها ليخبرني أن هيثم يقترب منها ويستعد لركوبها ليغادر، وبعد ساعة من الانتظار سمعت صوت إنذار سيارته يُعلن عن قدومه، هنا شعرت -وللمرة الأولى- بحماس شديد ورغبة مفعمة في إنهاء حياة هيثم، لم أشعر بالخوف، بل شعرت أن تصرفي هذا سيجعلني مرتاحًا أكثر.

كان هيثم قد أتى إلى ساحة الانتظار ليركب سيارته وينطلق لمنزله، جلس هيثم في مقعده، وشد حزام الأمان

حول جسمه، وبدأ في تشغيل سيارته، ففتحت باب سيارته الخلفي ودخلتها من الخلف، وقبل أن يلتفت هيثم صوبي لمعرفة من هذا الدخيل الذي اقتحم سيارته، وجَّهت إليه طعنة سريعة صوب خصره، جعلته وبطريقة عشوائية يحاول أن يفك حزام الأمان حوله ليخرج، لكني لم أعطه المزيد من الوقت، فعاجلته بطعنة ثانية وثالثة ورابعة، لا أعلم كم طعنة طعنتها له، لكنني كنت في حالة انتشاء ورضا عالية، ووسط صرخاته التي تراجع صداها مع كلّ طعنة كنتُ أطعنه بها، كنتُ أرفعُ صوت مذياع سيارته لأسمعَ أغنية أحبها كانت صادرة منه، انتظرت إلى أن لفظ هيثم أنفاسه الأخيرة، وما هي إلَّا دقائق مرت حتى شعرتُ بأنَّ قلب هذا الوغد قد توقف، وحركته كذلك، فغادرتُ سيارته بكلِّ هدوء، وذهبت إلى إحدى الحاويات القريبة، وتخلصت من كلِّ ما أرتديه من ملابس، وارتديتُ ملابس أخرى، وعدتُ إلى السكن، ونمتُ مرتاحًا وسعيدًا وكلّي رغبة في استكمال قائمة الانتقام.

ما زاد حماسي في اليوم التّالي هو ما كتبته الصحف ووسائل الإعلام عن بشاعة جريمتي، كانوا يصفونني بالمجرم الغادر وبكلمات أخرى دفعت مخيلتي لأن أعتقد نفسي أنني مثل شخصية الجوكر، هذا الإنسان المخيف والشرير الذي ارتكب جرائمه -أيضًا- بسبب ما اقترفه المجتمع من جرائم في حقه.

حسنًا أنا جوكر عربي، وسأكمل ما وصل إليه هو، والآن يجب عليَّ أن أراقبَ الصديق الكاذب الآخر، مشاري، هذا الإنسان الذي كان من الصعب مراقبته، فهو لا يلتزم بتوقيت معين في خروج أو دخول، فهو يلعب كرة القدم والبادل باستمرار، ومن النادر أن يلتزم بالجلوس في مكانٍ معين، لهذا قررتُ أن أقومَ بالأمر دون تخطيط، قررتُ أن أقتحمَ سيارته في أية ساعة من ساعات الليل وأثناء خروجه من أيِّ مكانٍ في توقيت متأخر.

لم أكن أتخيل كيف يفكر مشاري في حالي الآن بعد ما فعله بي هو وأبو برهان، هل كان يُدرك وسط انشغاله في لعبه أنني ربما ظللت مسجونًا في السجن حتى الآن بسببه؟ وهل فكَّر في حالي إن خرجتُ من السجن، كيف سيكون؟

وجدتُ فرصتي سانحة للانتقام منه عند خروجه من النادي الصحي، فقد كان يشعر بالتعب والإرهاق الشديدين، وهذا ما سيزيد من فرصة إنجاز مهمتي وسهولتها، وقفتُ بجانب سيارته، فتح هو بابها، فقمتُ فورًا بالدخول إلى السيارة، وفوجئتُ بأنَّه لم يجلس فيها بَعد، بل كان يبحث عن شيءٍ ما في جيبه، نظر صوبي بذهول، وتفأجأ من ظهوري أمامه فجأة فصرخ أمامي بصوت مرتفع وحاد:

- أنتَ، ماذا تفعل هنا؟

قفزتُ بسرعةٍ إلى المقعد الأمامي لسيارته، ثم خرجتُ من بابها بينما هو كان يتراجع للخلف وهو يستعد للهروب من أمامي، لم أعهد نفسي مرنًا وسريعًا مثلما كنتُ لحظتها، وما هي سوى لحظات مرَّت حتى كنت خلف ظهره وهو يجري بسرعة ويصرخ كي ينقذه أحد مني أو يخلصه من بين يدي، ولكني عاجلته بضربة أولى أسهمت في سقوطه، ثم تبعتها بعدة ضربات سريعة ومتتالية وجهتها له دون أن أتوقف؛ حتى أصبح جثة هامدة أمامي لا تستطيع أن تتحرك، وأثناء احتفالي بقتله شاهدتُ أشخاصًا يجرون صوبي من اتجاه بعيد، فذهبت صوب سيارته وانطلقت بها إلى منطقة برية حيث قمت بحرق السيارة كاملة وغادرت هذه المنطقة.

وهكذا حظيتُ يومها بنومٍ هادئ وجميل، وبراحة ورضا، وجاء الدور بعد مشاري على أبو برهان، والذي قمت بقتله لكن بطريقة مبتكرة وتتناسب مع أفعاله، كانت أبسط عملية قمتُ بها، فهذا الرجل كان ضعيف البنية ولا يستطع مقاومة ولو لكمة واحدة؛ لهذا قررت أن أقتله بالطريقة ذاتها لكن مع ارتكاب فعل جديد من باب زيادة الملذة في القتل.

كان يوم هذا الرجل مكررًا بروتينيَّة ولا يشهد أيّ تغيير؛ لهذا سارعت في تنفيذ ما أنوى فعله معه، انتظرتُ خروجه من أجل صلاة الفجر وسيره نحو المسجد، وقمتُ بتكبيله

ودفعه نحو سيارة، كان خائفًا جدًّا وكان يردد لي:

- سأعطيكَ كلّ ما تريده مني لكن أرجوكَ اتركني.

لم ألتفت لتوسلاته قَط، فقط ذهبتُ به إلى مكب النفايات في الشارع، وأسقطته أرضًا، وطلبتُ منه أن يعترف بجرائمه المالية، في البداية قاوم، لكن بعد لكمتين واحدة ذهبت لأنفه والأخرى إلى بطنه، تفوَّه بكلِّ ما يجب أن يقوله، ثم طلبتُ منه أن يرحلَ من وجهي وعندما سار عشر خُطوات، اندفعتُ بقوةٍ نحو ظهره لأوجه له عدة طعنات فلقى حتفه في هذا المكان القذر الذي كان يشبه أفعاله.

حسنًا، لقد قتلت المتسببين في الوضع الذي وصلت إليه حياتي، وحظيت بعد كل جريمة قمتُ بها بنوم هانئ ومريح، لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، فقد بدأتُ أشعر أنني أفتقد للقتل، وهذا الشعور أصبح يعتريني كرغبتي في الأكل أو الشرب، حاولتُ أن أمنع نفسي من تَكرار هذا الأمر لكن كان الأمر صعبًا عليَّ، فالنوم هجرني، وأعصابي كانت في حالة من الشدة لم أعهدها قَط، شعرتُ أنه يجب ألَّا يراني أحد مجددًا، فأنا لا أشغل بال أحد وأنا مجرد نكرة لا تُذكر، فقد صرت ملفوظًا خارج هذا المجتمع، وكنت أسأل نفسي:

«ماذا تريد الآن لاستعادة ذاتكَ وثقتكَ بنفسكَ؟»

ولكني لم أجد إجابة قَط على هذا التساؤل، فقد عانيت كثيرًا في هذا المدة، حتى جاءت إحدى الليالي لتُبشرني بالحلِ الوحيد، كنت موجودًا في أحد الشوارع الخلفية القريبة من مكان إقامتي، ووجدت شخصًا ينظر لي بتركيز شديد، لم يعجبني الأمر فبادلته النظرات الحادة نفسها، وسألته:

- ماذا هناك؟ هل تعرفني؟

ولكن إجابته جاءت أكثر استفزازًا من نظراته، فردَّ علي:

- اذهب في طريقك، ولا تضع عينكَ في عين أحد هكذا بَعد الآن.

كان يعتقد هذا الشخص ذو البشرة السمراء، ضخم البنية، أنني سأتركه وشأنه، لكن في الحقيقة أنني شعرت بسعادة عارمة بعد ردة فعله هذه؛ فقد أعطاني سببًا مقنعًا لقتله، نعم إنَّه ليس سببًا مقنعًا إذا ما نظرنا له من جانب إنسان لم يجرب القتل، لكن بالنسبة لي الأمر كان مُقنعًا للغاية.

جلست في أحد الأماكن البعيدة قليلًا أراقبه حتى وجدته يسير في اتجاه سيارته، وكالعادة قفزت كالأرنب فوقه، ووجهت له طعنتين قاتلتين في ظهره وتركته يصارع الموت وحيدًا، بينما عدتُ أنا أدراجي وأنا أحتفل

بحصولي على جرعة من الراحة من أجل النوم وقضاء ليلة هانئة بعد غياب النوم العميق عني.

بدأت بعد قتل هذا الرجل الأسمر في ارتكاب جرائمي والتي قرأت يا جبير أنتَ وغيركَ عنها وتعلمون كلَّ تفاصيلها، كل جريمة قمت بها لها حكاية قد تكون مقنعة وقد تكون مصطنعة.

توقفت حينها قليلًا عن كتابة ما أسمعه منه بعدما وجدته ملتزمًا بالصمت لثوانٍ، فقد كان فقط يتجه نحو باب الخروج ليقف أمامه ويسده بجسمه، فوجهت له سؤالًا:

- إذن كل جرائمكَ الأخرى كانت بلا هدف، لمجرد التسلية؟

- نعم، تستطيع أن تقول تسلية و-أيضًا- تستطيع أن تقول إنني أجرمتها طلبًا للراحة والنوم بهدوء، لا أعرف إن كنتُ أعاني من مرضٍ نفسي غريب أم أنَّ الأمر يُعد طبيعيًّا، لكن المهم أنني وصلت الآن لمرحلة الاكتفاء وأريد الكَف عن اقتراف هذا القتل، وأريد أن أعالج نفسي.

- جيد أنكَ قررت التوقف، حتى تتوقف هذه الفواجع، رغم أنني سأتضرر من هذا ولن أجد قصصًا جديدة أتصدر بها صحيفتي.

قلتها له ضاحكًا، بينما وقف جمال من مكانه وبدأ ينظر

من إحدى زوايا المبنى المهجور قبل أن يُكمل حديثه:

- هل تعلم، أريد أن أكتب شهادة اعتراف بكل ما قلته حتى تنال هذه القصص مصداقية خالصة.

- هل تريد أن تكتبها أنتَ؟

قلتها وقد وضعت أمامه ورقة وقلم، إلَّا أنه أبدى اعتراضه، وردَّ:

- وهل يُعقل أن أكتب وأمامي شيخ الصحافيين ومعلمهم، أرجوكَ سأخبرك بما أريد قوله وقم أنتَ بصياغته بطريقتكَ.

وافقت دون تردد، وبدأ هو في إكمال حديثه:

أعترف بأنَّ كل ما ذُكر في هذه الأوراق هي وقائع حدثت بالفعل وجرائم أنا مَن ارتكبها، وأنا مسئول عنها مسئولية كاملة، وأعتذر لكل عائلة فُجعت بفقد أحد أفرادها لكن لا تلوموني فأنا ضحية لم تنل حقها الطبيعي في هذا المجتمع.

- هذا يكفي.

قالها جمال بينما كان هو يوجه نظراته صوبي، فسألته منزعجًا من نظرته المفاجئة لي:

- هل من أمرٍ آخر لديكَ؟

لم يرد جمال بل وقف من مكانه، وأخرج من بين ثنايا ملابسه سكينًا، فشعرتُ بالذعرِ ووقفت مكاني، ورجعت خُطوات للخلف وأنا أستعد لإطلاق ساقي للريح، فقال بسرعة:

- هل شعرتَ بالخوف يا جبير، لن أقتلكَ، لكن لديّ فصل أخير يجب أن تكتبه تحت تهديد هذا السلاح، وإن توقفت لحظة عن الكتابة لن أتردد في أن أجعلَ مصيركَ مثل مَن حكيت لكَ عنهم.

بدأت يداي ترتجفان بقوة لدرجة أنني أسقطت القلم قبل أن أحمله سريعًا، ورددتُ عليه وأنا مرتبك:

- قل لي ما هذا الفصل، ولكن عدني أنَّكَ لن تقتلني، فأنا لا ذنب لي، كنتُ فقط أساعدكَ.

هز جمال رأسه، وهو ينظر لسكينه ويقول:

- لن أقتلكَ بهذه السكينة إن فعلتَ ما أمليه عليكَ.

وافقت وطلبت منه أن يحكي هذا الفصل.

فصله الأخير.

***

الوَرقةُ الأخِيرة

ها أنا قد وجدت علاجي في إنهاء جرائمي بقتل كل من تسبب في هذا كله، ليس أبو برهان أو هيثم أو مشاري أو غيرهم، بل هناك رجل لم يمنحني حتى دقيقة ليراني أو يسمعني، رغم كل ما فعلته من أجل الاقتراب منه إلَّا أنَّه لم يشعر بي، لم ينبض قلبه أو تتحرك عواطفه تجاهي،لم تستيقظ غريزة الأبوة بداخله، بل عاملني كأيِّ شخص غريب مرَّ عليه في حياته، فقررتُ أن أنهي حياته مثلما دمر هو حياتي وحياة عائلتي من قبلي، يجب أن ينال جزاء فعله، وجزاء تفضيله لنفسه على جميع من حوله.

سأرتكب هذا الجريمة دون ندم أو خوف أو تردد، فمثله لا يستحق الحياة للحظة، وأهلًا بالسجن وحتى حبل المشنقة من بَعده، المهم أنني سأنهي حياته قريبًا، قريبًا جدًّا.

من سأنهي حياته هو أبي، نعم أبي، هذا الشخص الذي اعتقد أن الأضواء أهم من أبنائه وزوجته السابقة، واليوم سينال عقابه وجزاءه، وأقرّ أنا جمال جبير عبدالستار بـ..

رفعت نظري صوبه مذعورًا وخائفًا، وقلت مندهشًا:

- ماذا قلت! جمال، من هو جمال، انتظر لحظة، لا، أنتَ لستَ ابني، لا أذكر أنني أنجبت ابنًا بهذا الاسم، لقد كان لديّ عشرة أطفال وليس من بينهم اسم جمال، أنا متأكد

من..

ضحك جمال بصورة هستيرية أمامي، وردَّ عليَّ قبل أن أُكمل كلامي المرتعب:

- أنا عبدالستار، ابنك الثاني، لقد غيرت أمي اسمي لأنها لا لم تكن تريد أن تذكركَ قَط، لقد أسميتني على اسم والدكَ، وقامت هي بتغيير اسمي إلى اسم والدها، هل تعرف اسم والدها أم نسيته مثلما نسيتَ ابنكَ الماثل أمامكَ الآن؟

زاد رعبي من هذا الموقف المفاجئ، وأنا أجيبه:

- جمال محمد، والدها هذا اسمه، نعم، أنا أ..

قاطعني مرة أخرى، وقال لي:

- أنتَ ماذا، تريد الاعتذار!

لقد انتهى الوقت، وقفتُ أمامكَ عند وصولي إلى هنا، وقلتُ في قرارة نفسي إن تذكركَ وناداكَ بـ: (ابني) ماذا تفعل حينها؟ هل ستسامحه وتذهب بعيدًا ولا تخبره؟ لكنكَ لم تشعر أنَّ من يقف أمامكَ هو فلذة كبدكَ، لقد كان بريق الإثارة والمتعة في عينيكَ فقط، لم أر فيهما غير فرحكَ لأنَّك كنتَ تكتب قصتك الجديدة المثيرة، وستكتبها بالفعل، لكنها ستكون قصتكَ الأخيرة.

لم أعرف ما كان عليَّ أن أفعله، كنتُ مستعدًا لهجومه

المباغت لكني حاولت أن أُذكره بوعده:

- لكنكَ قطعت لي وعدا أنَّكَ لن تقتلني.

فضحك بصورة هستيرية مخيفة، وقال:

- نعم أخبرتكَ أنني لن أقتلكَ بهذه السكينة؛ لكني سأقتلك بطريقتي، لتكون أنتَ خاتمة جرائمي، وما أجمل الخواتيم إن كانت بصورة مختلفة كهذه.

هنا، انحصرت أفكاري في كيفية هروبي وخروجي من هذا المكان، كان يقف هو أمام الباب المؤدي للخروج، لم يكن أمامي إلَّا طريقًا وحيدًا للهروب وهو النافذة، أن ألقي بنفسي منها ثم أسقط على كومة الرمل في الأسفل ربما تكون الإصابة طفيفة وأستطيع الهرب أو يشاهدني أحد ويساعدني في مواجهة هذا المختل.

بدأت أتراجع للخلف بينما كان هو يقترب مني أكثر وأكثر، قبل أن أذهب مسرعًا للنافذة وأرمي بنفسي من الطابق الثالث، لقد شعرت أن حياتي كلها مرت أمامي في ثواني السقوط هذه، تذكرت فيها زوجاتي وأبنائي، وتذكرت جيدًا ملامح عبدالستار، كيف أنني لم أره سوى لمرات قليلة ولم أنتبه قَط لملامح وجهه، لم أدرك يومًا أن عدم انتباهي لهذه الملامح، وعدم التواصل معه سيكلفني حياتي.

وصلتُ للنهاية، لقد سقطت فوق هذه الكومة التي كانت أكثر صلابة مما توقعت، فقدت بعد قفزتي الوعي، لا

أعرف لكم من الوقت، إلَّا أنَّني لم أعد أشعر بالألم، خيل لي فور سقوطي أنني فارقت الحياة، فلا يعقل أن هذا الجسم النحيل والكهل يستطيع الصمود مع هذا السقوط الحر العالي.

بعد هذا السقوط المروع فتحت عيني وأنا راقد فوق هذه الرمال التي سقطت عليها، لم أعد أشعر بجسمي، رقبتي يبدو أنها تضررت هي الأخرى من السقوط فكلما حاولت تحريكها شعرت بألم ينتابني ويجعلني أفضل البقاء دون حراك، لكنني كنتُ أشعرُ أنَّ هناك شيئًا غريبًا رغم عدم إحساسي بالألم، شعرتُ أن سيلًا من الدماء يخرج مني دون توقف، حاولتُ أن أصرخ لكن عاجلني طنين في أذني جعلني بقيت صامتًا، وبعد ساعة من بقائي على هذا الحال، اقترب مني كلب أسود اللون ضخم الجسم، كان يشم رائحتي، هل كان يريد التأكد من أنني حي أم ميت؟ لا أعلم، لكن بدا لي وكأنه كان يستعد لالتهامي.

لا مجال للهرب ولا مجال للصراخ، يا لسوء النهاية!

يأكلني كلب!

لم أتوقع ميتة بهذا السوء قَط، بدأت أرى لعاب الكلب وهو يسيل ويسقط فوقي وهو يستعد لأخذ أول قضمة مني، بينما أنا كنتُ أردد الشهادتين داخلي استعدادًا لمغادرة هذه الحياة، وما هي إلَّا لحظات مرَّت حتى صوِّب حجر طائر نحو هذا الكلب ليضربه على ظهره فابتعد مسرعًا

خائفًا من هذا القادم من بعيد.

كان أحد حراس البنايات المجاورة لهذا المبني المهجور، اقترب مني ونظر في عيني، وسألني:

- هل أنتَ بخير؟

كيف أجيبكَ وقد فقدت قدرتي على الكلام أو الرد بأيِّ فعل، نظر في كل ناحية قبل أن يقول لي:

- إصابتكَ بليغة، سأتصلُ بالإسعافِ.

وما هي إلا دقائق مرَّت حتى وصلت الإسعاف وتم انتشالي من هذا المكان المهجور، وكنتُ أستمع لكلمات المسعف وهو بتحدث عني:

- أتمنى ألَّا يفقد الحياة قبل وصولنا إلى المستشفى.

لا أعرف لماذا قال هذا العبارات رغم أن عيني كانت تنظر إليه، هل من الممكن أن يحدث لي أيّ مكروه أو أن أفقد حياتي؟

لا، لا أريد أن أرقب الموت منتظرًا فالأمر مثير للرعب أكثر من أن يخطفني فجأة دون انتظار أو ترقب.

وصلت إلى المستشفى، وتم نقلي إلى غرفة العمليات على الفور، ووضعوني على هذا السرير الأزرق الذي وضعت وسطه كقطعة جماد لا تتحرك، واستطعت أن أغمض عيني للمرة الأولى بعد أن غطى جهاز الأكسجين أنفي وفمي.

غرقت في أحلامي، حياتي تعود مجددًا للظهور أمامي على شكل لقطات سينمائية، كان الأمر مخيفًا فقد كنت أعيش وحدي في أغلب مراحل عمري، الوحدة جريمة يرتكبها الإنسان في حقِ نفسه، فإذا كنت في حاجة للوحدة فأفعلها لساعات وليس لعمرٍ كامل، ويا لعمري الذي سيذهب سدى! ابني هو قاتلي، وأنا من كنتُ أتعاون معه لنقلِ تفاصيل جرائمه.

كنت أشاركه في ما يُجرمه، بل وأستفيد منه.

فتحتُ عيني مجددًا في الفراش الأبيض المفروش على السرير الأزرق، لكن شعور الشلل التام وعدم القدرة على النطق يلازماني، بعد دقائق دخلت ممرضة الغرفة لتلقي نظرة عليَّ قبل أن تخرج وتصرخ في الخارج:

- أيُّها الطبيب، لقد أفاق المريض.

سمعت صوتين، أحدهما يقول:

- هل نستطيع أن نحقق معه الآن؟

فرد عليه الصوت الآخر:

- إذا لم يفقد القدرة على النطق بإمكانكم فعل هذا.

دخل الطبيب ونظر صوب عيني، وهو يُحدثني بشيء من الحماسة:

- جبير، هل تسمعني؟ أغمض عينيكَ فقط، وإن كنت تستطيع الحديث قم بالردِّ علينا ولكن بأقل مجهود.

حاولتُ النطق لكنني لم أستطع، لقد شلت حبالي الصوتية مثلما شلت أطرافي، فقمت بمبادرة للتجاوب معه، فقد أغمضت عيني لعدة مرات، ولكن الطبيب لم يرد عليَّ أو يفهم؛ بل تحولت نظراته المتحمسة إلى حزينة، ونظر صوب الممرضة التي كانت تتابع هذا المشهد، وقال:

- تابعوا حالته الحيوية وتأكدوا من سلامة قلبه، الحمدلله لقد أنقذناه من موت محتوم، لكن لا أعتقد أننا سننقذه مما ألَّم به.

ما ألَّم بي! أخبرني أرجوكَ، أنا لا أستطيع سؤالك، قل لي: ماذا حدث بي؟

لكنه ذهب وتركني أواجه أسئلتي الصامتة وحيدًا، بينما كانت تقترب مني الممرضة لتقوم بعملها.

استمريت على هذه الحالة ليومين، لا أرى فيهما سوى الطاقم الطبي ولا غيره، لا أصدقاء ولا أقارب ولا زوار، وفي اليوم الثالث، فتحت عيني لأجد أمامي المحقق هاشم وهو يحدق نظره صوب عيني، ويسألني:

- حاولت الانتحار يا جبير، لكن محاولتك باءت بالفشل، ستبقى مسجونًا إذن، لكن في جسم لا يتحرك وفم لن ينطق كلمة أخرى مجددًا، لم أتوقع أبدًا أنَّك هذا المجرم

المتسلسل، لقد أتقنت اللعبة جيدًا يا جبير وأقنعتنا وأقنعت الرأي العام أنكَ تملك أداة سحرية تجعلك صاحب السبق الصحافي الأول، وفي الحقيقة كنت أنتَ المجرم وصاحب السبق معًا، مَن كان يقول إنَّ شخصًا مثلك يملك هذه السيرة الصحافية الحسنة يَقدم على ارتكاب أفظع الجرائم كما فعلتَ أنتَ.

من هو المجرم!

أنا،لا، لا أريد أن أخبركَ أنَّه ابني ولستُ أنا.

لكن كيف؟ لا أستطيع سوى أن أركز عيني تجاهكَ، ولن تفهم نظراتي أبدًا.

أكمل هاشم:

- لن يشفع لكَ أحد، أفهم هذا النظرات التي تطلب السماح من الجميع، لكن حتى كومة الأوراق التي تركتها خلفكَ والتي رويتَ فيها تفاصيل جرائمكَ، وهذا الاعتذار البارد، لن يقللا من حجم مصاب أهالي القتلى، للأسف لن تذهب إلى المحكمة، لكنكَ في يوم من الأيام ستتحمل مغبة أفعالكَ أمام رب العالمين، ولا أرى أنكَ ستعيش طويلًا مع هذا الجسم المحطم من كلِّ جهاته.

خرج هاشم من غرفتي بالمستشفى، بينما كنتُ أحاول أن أفسر ما يحدث، لماذا يعتقد أنني فعلت كل هذا؟ ولكن الإجابة لم تنتظر طويلًا، لقد تمثلت أمامي بعد

ساعات قليلة؛ حيث كان هناك زائر، لم أتوقعه قَط.

بعد ساعات قليلة سمعت أقدامًا تقترب مني أكثر وأكثر، فحاولتُ النظر نحو هذا الصوت، وقد كان جمال، نعم جمال في أبهى حُلة يقف فوق رأسي، مد يده ومسح على شعري، وقال:

- إذن أنت الآن تنظر لي جيدًا وتعرف أنني ابنكَ، هذا جيد.

ماذا سيفعل بي الآن؟ هل سيقتلني؟ أُفضل هذا الخيار على البقاء في هذه الحالة، لكنه بقي يمسح على رأسي، ويقول:

- مشتاق أنا لكَ يا أبي، لقد كان لقاؤنا الأخير ممتعًا، لم أتوقع أنكَ جريء قَط لتقوم بهذه القفزة، من حسن الحظ أنكَ لم تنج منها، حتى أنجو أنا بنفسي، كان من الجيد أنني جمعت هذا الأوراق وتركت ما يُدينكَ ويُحملكَ مسؤولية كل هذا، عليكَ الآن أن تتحمل مسؤولية إهمالكَ لابنكَ عبدالستار، انتهت أسطورتكَ منذ أن عرف الجميع أنكَ خلف كل هذه الجرائم، مهلًا انتظر قليلًا، وسأعود إليكَ بسرعة.

ذهب بعيدًا، بينما لم يكن لديّ سوى ذرف الدموع على هذه النهاية المأساوية التي أعيشها والتي لم أتوقعها قَط، ثمَّ عاد وبين بيده جريدتي؛ جريدة الأحداث، ففتحها وبدأ

يقرأ ما كُتبَ في عنوانها:

«القاتل جبير يدفع ثمن جرائمه».

قرأ عناونها، ثم قال:

- انظر ما كُتبَ عنكَ في هذا الزاوية:

«تتبرأُ صحيفةُ الأحداث من تصرفاتِ هذا الرجل المختل، ويؤكد رئيس تحريرها على أنَّها أرادت التخلي عن خِدماته لتصرفاته الدنيئة وأفعاله غير الموزونة، وأن لديها مذكرة رسمية لإنهاء خدمته بالصحيفة، كما تُعلن الصحيفة أنها ستتبرع بمكافأة نهاية خدمة هذا المجرم المختل إلى أهالي الضحايا».

لقد باعوني بأرخص ثمن، وتناسوا تاريخي الحافل بالإنجازات، حتى إنهم لم يكلفوا أنفسهم بتوكيل محام للدفاع عن ابنهم البارّ الذي كان مشهودًا له بالأخلاق ومثالية العمل، رغم سوء الموقف الذي أنا فيه الآن إلَّا أنني استطعت استخلاص الدرس وإن كان متأخرًا، لا أحد يستحق التضحيات وخصوصًا العمل.

ربما لو حافظت على عائلتي لكنتُ وجدتُ الآن من يقف بجانبي يذرف الدموع من أجلي، ويستميتُ للدفاع عني، وأضعف الإيمان يسأل عني في سجني أو يزور قبري بعد موتي.

لم أفكر يومًا أن تنتهي حياتي بهذه الطريقة التراجيدية،

لطالما قلقتُ من التقاعد ونهاية خدمتي ولكني لم أكن أتصور أن أنتهي كصنم على كرسي متحرك، أريد أن أقفز مجددًا من هذه النافذة, أريد أن أُحلِّق، أن أشعر بالهواء يدخل ذرات جسمي قبل أن أهوي، أريد أن تكون السقطة أدق فأموت سريعًا.

لكنني الآن هنا، أكتب داخلي وأستمر في الكتابة, ثم أضع نقطة في نهاية السبق الأخير الحصري وأغمض عيني وأراني لآخر مرة, أسير بثقة في الممر المضاء لمبنى صحيفة الأحداث، ورفاقي يخرجون من مكاتبهم ليحيونني بتصفيقهم الاستعراضي، وأرفع يدي الاثنتين كطفل يقلِّد بطله الخارق.

سعيدًا.

سعيدًا جدًّا لآخر مرة.

واصل جمال قراءة الأخبار في الصحيفة بجوار أذني ودون توقف، هذه الأخبار كانت تقتلني ببطء، وكلما أنهى جزءًا من القراءة نظر صوبي شامتًا وأنا غارق في دموعي، وقال:

- لعلكَ تشعر بالندم الآن، ولكنه ندم بعد فوات الأوان، عمومًا أنتَ تستحقُ مصيركَ هذا لأنكَ حين فعلتَ فعلتكَ وأهملتَ عائلتكَ كنتَ في كامل وعيكَ وإرادتكَ، ولم تفكر يومها في مستقبل هؤلاء الأطفال الذين ولدوا وعاشوا

يتامى ووالدهم على قيد الحياة، ولكن رحتَ تبحثُ عن الشهرة والنجومية والأضواء على حسابنا نحن، وأنا بوجهٍ خاص، على الأقل قد حظى أخي وأختي على بعضٍ من الحب والدلال من أمي. الآن سوف أتمتع بما سأرثه منكَ، سوف أتزوج وأنجب أطفالًا، سوف أحرص على تربيتهم أحسن تربية، سأغدقُ عليهم بالحب والحنان والاهتمام، وسيكونون هم محور حياتي.

ثُمَّ وقفَ أمامي وهمَّ بإرسال قبلة الى رأسي مودعًا لي وهو يردد:

- وداعا يا جبير الحصري.

***

اصدارات الكاتب

- غسق
- ليلُ السوالف
- الليلة لن أنتظر شيئاً
- ثمَّ هوى
- شيءٌ يشبه النسيان
- معصيةُ ليلى
- اختلال
- إليسع
- وحدها بدرية تعرف
- المَحْظُور

تأكد من أنك تقرأ هذه الرواية من قناة ضـــاد الرسمية
على تطبيق تيليجرام:

تمّ تجهيز هذا الكتاب الإلكتروني
بـواسـطـة:

مكتبة ضاد
t.me/twinkling4

لجميع الكتب، المجانية والمدفوعة،
وكل ما تشتهيه قريحتك الثقافية.

لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ

سعد عايد البدر